الفصل الأول

نظرات عامة للمؤلف

١- القواعد التى يتعين للمؤلف اتباعها:

. . .[(١)] واستنباط الغريب الذى لا يعقلـه كثير من الناس، فإن ذلك يولد خشونةَ اللفظ، الذى تمجُّه الأسماع.

والكلامُ، إذا خرج من القَلْب، وقع فى القَلْب، ولا خَيْر فى رامٍ رَعِش، ولا متكلِّم هائب، فإنَّ الهَـيْبة فرعٌ [مـن] المخافة، والمـخافة فرعٌ [مـن] الحذر، ومَنْ حذر فـقد عَقْلَه، ومَنْ خاف، تكدَّر عـيشُه، ولا تصحُّ مع هذا قريحةٌ ينطق عنها اللسان، ويذكى بهـا الجَنان، فالنفسُ إذا منعت ما تشتهى، تُرَى مختلطة، وتصير كأنَّها بطوارقِ الخبل مختبطة.

ولا يجب على الناطقِ والكاتب أن يتَّـبع هواهُ فى أمْرِه كلِّه: فكلٌّ مفـتون ملقَّنٌ حُجَّـتَه، ولا عليه أن يرفق ذلك، فـيكون بانيًا على غيرِ أصْل وعـاملاً لغَيْر نهاية، وعسى بذلك يسعى فيمـا يُصلح غيْرَه ويُفسد حالَ نفسه، وهو لا يشعر، بل يصرف نفســه على فرقَيْن: يسعَى فى بلوغ أمَلِه وإدراك مُراده دون أن يكون ذلك مُخِلا بذكـره ولا غرضًا لعدوِّه، وكلُّ بيــان ما لم يكن صوابًا، فهذَرٌ.

وليس يُحْمَـدُ لواضعِ كتابٍ أو ناظمِ خبَـرٍ أكثر من جودة التـأليف فقط، لأنَّه إنَّما وضع ما قـد سبقه إليه غيرُه، وكلٌّ أحـد ينفق ممَّا عنده، وإنَّ الأوَّل لم يدع للآخر شيئًا، فلو كان نطقُ الناس إحالةَ بَعْضهم على بَعْض، ما سُمع أحَدٌ يأمر بمعروفٍ ولا ينهى عن مُنكرٍ، ولا يتبرَّع فى [شىءٍ] ولكنَّ الأولَى

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

أن يؤخذ بما نصَّ الله عليه فى قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (الزمر: ١٨).

وليست الفائدة فيما قصَدْنا إليه ذِكْرَ خَبَرٍ يوصف ويأتى عليه نادرة مستطرفة، أو حكاية مستغربة، أو معنًى يؤدِّى إلى تأدُّب وانتفاع، فلَعَلَّك ـ أيُّها المتأمِّل كتابَنا ـ أن يكون عندك أو طرأ إليك خَبَرٌ من أحوال الدولة مشهور لا تَجِده منصوصًا هُنا، فتُعْجِز واضِعَه: فليس إلا كما قدَّمناه، اللَّهُمَّ إلاَّ أن يكون حديثًا يؤدِّى إلى القيام بحُجَّة صاحبه والاعتذار عنه من أمْرٍ قد التبس على الجاهل أو أشكل على السامع لم يهجم على حقيقة، فنَطَق هَذَرًا، وساعَدَ عليه أقوامًا لم يخسروا فى عرض غيرهم شيئًا، وطعنوا على غائبٍ أو ميِّتٍ لم يُحرِ الجواب عن نفسه، أو دليلاً لم ينتصر لعَرْضه.

أو أبان المؤلِّف عن نفسه حِذْقًا ومعرفةً تُذْكَر عنه وتُنشر بعده: فإنَّ ذلك من آكَد ما يجب له السعْىُ فيه وإعمالُ ذهنه وحواسِّه فى تلخيصه، إن أعانه على ذلك اغتباطٌ بجميل الثناء، وأنَفةٌ لسوء المقال، ونشاطٌ على ترفيع الذكر، مع فتور(١) الهمة وصبوة القريحة، وإلاّ، فالأمرُ ناقصٌ منه، واللسانُ عيىٌّ عنه.

ولا سبيل إلى اجتماع أمرَيْن مختلفَيْن فى الإنسان معًا، ولا فى غيره من جميع المخلوقات، فإنَّه، مَتى ارتفع أمرٌ، نزل ضدُّهُ: كالحياة، إذا ارتفعت، وجب الموت، وإذا ارتفعت الصحَّة، وجب السقم، وإذا ارتفع الكرب، وجب الفرَج.

هكذا نسق كلِّ أمرٍ: كالعامل للآخرة محضًا، لا بُدَّ له من نقصان دنياه.

(١) فى المطبوع: «فتو».

الا تَرَى أنَّ مؤلِّفَ الـكتاب، إن كان غـرَضُه نَظْم الكلام وسَـجْع اللفظ، كان ذلك ضاراً بالمـعنى، وإن أتَى به، فإنَّما يسوقه بعـد تحليق عليه، وربَّما وضعه من غـير شكله، وإذا تمَّ المعنَى، نقص بَعْضُ اللفظ، كـما قيل: «إذا تمَّ العقلُ، نقص الكلام».

وأرَى أنَّ مساقَ الحـديث فى التأليف بَعْضه لبَعْض أحـسنُ خرطًا وأفضلُ نظمًا من تقطيعه، ولـهذا نُرِيدُ إيرادَه كالحديث «[فالحـديث] ذو شُجـون» ونضرب المثَل لبَعْضه ببَعْض: فيتَّفق إيرادُه دفعةً واحدةً، ونصُّه على أكْمَل ما يمكن.

٢- حقيقة الإسلام والرد على من لا يؤمن به:

ومن كان لا يعرف دنياه التى نشأ فيها، وأدركـها ببصره وجميع حواسِّه، فهو لآخرتِه أجْهَل [آخرته] التى لا تُعرف إلا بالتفكُّر والاعتبار، بعد ما حض عليه الكتـاب وأتى به الرسول ـ ﷺ ـ وقـال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (الرعـد: ١٩) وما يصلح لنفســه لا يصلح لغيره، وأصل العلم كلِّه معرفـة الإنسان بدينه، و [يقـينه] بمعَاده، وأنَّه لم يُخلَق عبـثًا، فإذا صحَّت معرفُته بذلك، كان أحْرى أن ينتفع به لدنياه التى يشاهِدُها معاينةً.

والرجـالُ ثلاثةٌ: رجلٌ علِمَ فَـعَـمِل: فـذاك الذى يُدْعَـى فى الملكوت، ورجلٌ عَلِمَ ولم يعمَل: فذاك الذى يُضـاعَف له العذاب، ورجلٌ لم يَعْلم ولا عَمِل: فذاك، إن مات، يموت مِيتـةً جاهليَّةً، ولا تصحُّ له معرفة دينه إلا بأن لا يقدح فيـه قول كافرٍ ولا مُعَـطِّل، فإذا حَسُن تمييـزُه عن الصنف المُلْحِد،

عرف فَضْلَ ما هو عليه، فاتَّبع على يقينٍ وجودة نَظَرٍ، لا باستهزاء ولا تقليد، فيعجز ويشكُّ.

وأمَّا من كان من الأصناف المُلْحِدة، غير أهل الكِتابَيْن من المُشركين ومن سِواهم، فالضلالُ منهم بيِّنٌ، لا يحتاج معه إلى قياس ولا تفتيش، وما ما يزعم أهل الكتاب من أنَّهم على الحق، ولهم الدين القويم، وأنَّ قولهم أخلَّ [بغيره] فالردُّ عليهم في ذلك أن يُقال لهم: «إن كنتم تزعمون أنه ليس بعد نبيِّكم نبيٌّ ولا سُنَّةٌ، فلا يكون هذا القياس إلاَّ بأن تكفروا بمن كان قبل نبيِّكم من الأنبياء! ألم تكن قبل موسى شرائعُ وكُتُبٌ مُنزلةٌ وأنبياء عدَّةٌ؟ فلو كان على مذهبكم، لا ينسخ دينٌ دينًا، لم يجبْ لكم أنتُمْ شيءٌ!».

وإنَّ الله تعالى لا يترك الخلق سُدًى مُهْمَلين، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٤) وقد كانت الضلالة بيِّنة في الفترات من عبادة الأوثان وتعبُّدهم بعضهم لبعض، ما لم يكن في حكمة الله ومشيئته أن يترك المرءُ ودينه، ولا يمهل من يعبد سواه حتى بعث محمدًا - ﷺ - بالحقِّ بشيرًا ونذيرًا، فصدع بالقرآن، وجاهد في الرحمن، وسنَّ السُّنَن، وأمر بالمعروف، ونهى عن المُنْكَر، وكان في ذلك الزمان قد ضلَّ أهلُ الكتاب، واختلفوا، وردَّ بعضهم [على بعض بما لا] يمكن أن تصحَّ لفرقة منهم شريعةٌ مع الأخرى، وكانوا كما. . .(١) الله تعالى، فختم الله الرسالة بنبيِّنا - ﷺ - ليبيِّن له ما فرضه عليهم، ويُظهره على الدين كلِّه! إن يقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ (المائدة: ١٩) وقال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨) فالُحجَّة عليهم ظاهرة على ما بيَّنَّاه فيما يعطي العقل

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

والقياس، وأمَّا تِبْيان نبـوَّته ـ ﷺ ـ فى الآيات التى جرت على يده، فأكثر من أن توصف.

وإذا قتلتَ أحَدَهم ببعض هذه الحُجَج، فمن يـنتحل منهم فِقْهًا فى علمه وسدادًا، يرجع إلى أن يقول: «إنَّما كان رسولاً إلـى العرب!» فتأمَّلْ تناقُضه، وكف أثبت له الرسالة، ومـتى وجب إثبات الرسالة، فقد أوجـب على نفسه التصديق فى كلِّ مقالة وما أتى به، ثُمَّ الله يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ (سبا: ٢٨) وقال ـ ﷺ : «بُعِثْتُ إلى الأسْوَد والأبْيَض والحُرِّ والعَبْد» فهم لا يصحُّ لهم الإنكار جملة ولا الإيمان بأمْرٍ دون أمْرٍ.

٣- قصور القياس دون عون من الوحى:

وقد كانت معرفة البارئ تعالى بالعقل اضطرارًا لقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (الزخرف: ٨٧) ولو تُرِكَ الناس فى ذلك على قيـاسهم وما تدركه عـقولهم، لكان خـوضهم فى هذا المـعنى قليلاً، مـستـضعـفين، لا يطيقون نصر ما عُهِدَ إليهم ممَّا يريدون من الأمر المعروف والنهى عن المُنْكَرِ ولغلب جُهَّالَهم وعامَّتَهم التظلُّمُ، ولم يلتـفت أحد إلى قوله وما يقيس عليه، فكانت النعمة ممَّا أراد الله من صـلاح العالم أن بعث فيهم الرُّسُل، ليكون ما أتوا به دواء لِمَا فى الصدور وهُدًى ورحمةً، فـمن عرف الله قبل بالعقل، أتمَّ عليه نعمته، فقد عرَّفه نفسه باليقين، وبشَّره بالثواب، وأنذره العقاب، ليرتفع الشك ويوقن بالمعاد ولينقد إليه عامَّة الناس طوعًا أو كرهًا.

ألا تَرى أن لا شىء من أُمـور الدنيـا يصحُّ بـالظنِّ دون اليـقـين؟ فكيف الآخـرة التـى لا يوقن. . .[1] الذين أبانوا عنهـا، والظنُّ أكْـذَب الحـديث

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

والشرع، ومن تقلَّده بطل [رأيه] وليس حكمُ البارئ تعالى ممّا يجرى على قياس: كـيف؟ وهو خالق القياس، وهو واهب العقـل الذى به أدركنا جميع الأشـياء، ألا تَرى أنَّ النفس لم يـقف أحدٌ منهـا على حـقيـقة؟ مـا هى إلاَّ اختلافٌ بين العلماء الشرعيِّـين وأهل الطبيعة والدَّهْرِيَّة، والحقُّ إنما يكون فى طرف واحد، فهم يخـبطون خَبْط عَشْواء وإذا قِسْتَ على الحقِّ، فـإنما تجده عند أهل السُّنَّـة لما بأيديـهم من القـرآن وحديث الرسـول ـ ﷺ ـ فـهم يتكلَّمون على أصل، وغيـرُهم على قياس: ﴿إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام: ١١٦).

وترى من المُلْحِدين كثيراً [مَنْ] لا يؤمن بالغيب ويقول: «إنَّما أعلم ما تُدْرِكه حـواسِّى من حارٍّ وباردٍ ورطبٍ ويابس، وما أدركـتُه بعقلِى ممـا كان، ولا أعلمُ مـا يكون، وإنمـا أنا آنُ الآن» فالردُّ عليـه أن يقـال له: «أتدرِى بِمَ عرفتَ هذا كلَّه؟» سـيقول: «بالنفس، وعلمتُ النـفس بالعقل الذى هو أرفع الدرجـات» فنقول له: «إذا عـرفتَ بالعـقل ما أنـتَ فيـه، لم يكن لك شىءٌ متقدِّم تعرف به العقل، ولا استطعتَ لنفسك، ولا علمـتَها قبل، فتركب فيها عقـلاً وتدبيرًا، وواهِبُ العـقل الذى خلقك ودبَّرك كيف شـاءَ، قادرٌ على أن يعيذك ولا يجعلك هملاً، ولم يخلقك عبثًا! ولو أنك تعلم ـ أيُّها الشقىُّ ـ أن العقل، إذا جحدتَ به آيات ربِّك، كَلٌّ عليك وحَـمْلٌ يوم القيامة، وهو قوله تعـالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (الأحقـاف: ٢٦) وقـال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ (يس: ٧٨) وقد أتت الرسُل بالآيات التى هى خارجة عـن حكم الطبيعة ليكون

ذلك فى العالم أشدَّ استغرابًا وعجزًا يـؤمن به أكثرُ البَشَر، وقد أمر الله تعالى بالإيمان بما قـد غاب عن العقل والقياس، ولا يعجـز الله فى قدرته على ما يشاءُ جاحِدٌ كافِرٌ.

كقول أهل الطبيعة: إنَّها هى تُدَبِّرُ كلَّ شىء، وإنَّها أعلم [من] كلِّ عليم وأحكـم [مـن] كلِّ حكيم، فنجع من فعلها فى الأبدان مـا لا تُدركه الأطِباءُ باجتهادها.

وقال غيرُهم: «الطبيعة اسمٌ واقعٌ على غير شىءٍ لا يُدرَى ما هو» فالحُجَّة عليهم: أهِيَ طبـيعةٌ واحـدةٌ، أم طبائعُ كثـيرةٌ؟ بل، سيـقولون: «لكلِّ شىء طبيـعةٌ»، فأرى أضدادًا لا تصحُّ لأحـدها إلاهيَّةٌ، وغَيْـرُها مُناقِضٌ لها، وهى كانت حُجَّة إبراهيم على قومه ورَدَّه على من قال: إنَّ الشمس هى حياة العالم دون غيرها، فـقال ـ عليه السلام: «أرى الظِّلَّ يفعل ضدَّ مـا تفعله الشمس، والخالقُ لا يُضادُّ!» فأثبت الوحدانيَّة بالحُجَّة القاطعة الواضحة.

وقد ذُكِـر عن سُقْـراط، وكان فى زمن جـاهليَّة، أنه قال، بـما أوتى من الحكمـة، مـخاطبًا البـارِئ عـزَّ وجـلَّ: «يا أزَل الأزَل! ويـا أوَّلَ الأوائـل! ويـا قـديمًا! لم يَزَلْ مِنِّى نارُكَ لعِـلْمِى أنَّ هذه المخلوقـات من آثارك؟» ولم تكن معه فِئَةٌ يتَّبعونه على قوله، ولا يعقلون ما قال، حتى أمروا بقتله.

ولهذا يرجع ما قدَّمنا ذِكْرَه أنَّ شرعًا لا يتم بقياس العلماء وخواصِّ الناس دون الرسالة، على أنَّه لا يشكُّ ذو عـقل أنَّ المخلوقات قد جـعلها الله عِلَلاً بعضـها لبَعْض، ولم يـخلقها عَـبَثًا، ولكلِّ عِلَّة عِلَّةٌ إلى أن يـنتهى ذلك إلى البارِئ عزَّ وجلَّ، فهو الذى لا فوقه شىءٌ، وهو قول إفلاَطُون لموسى ـ عليه

السلام ـ إذ قال له: «يا أخى؟ رَسولُ مَنْ أنتَ؟» أراد استخباره، فقال له موسى: «أنا رسول العِلَّة» فقال له إفلاطون: «ما العِلَّة؟» قال: «لا أدرى! ولو كنتُ أدرِى، لكنتُ أنا العِلَّة! إنَّما أنا متَّبع!» فقال له إفلاطون: «اذهبْ وبَلِّغْ ما شئْتَ! فالآن صحَّ عندى أنَّك رسولٌ حقًّا!».

وكذلك الجُزْءُ لا يُحيط بالكُلِّ، والكلُّ مُحيطٌ بجميع الأشياء، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

وكذلك أهل الهندسة والمعرفة بالنجوم قد علموا أنَّها مخلوقةٌ مصرَّفةٌ لما [فيه مصلحة] العباد، والعاقل منهم يقرُّ بذلك، غير أنَّه نُهى عن النظر فيها الاجتهاد فيما نُهى عنه، إذ ليست عقول أكثر الناس تهتدى إلى الحقيقة، والفسادُ أسرعُ من البنيان، وأقربُ إلى عقول الناس من الاهتداء «وَدَعْ ما يُريبك إلا ما لا يُريبُك».

وَهُمْ يقولون: إنَّ فيها سعوداً ونحوساً، إنَّما فى الفلك سعدَان ونحسَان، يعنون بها المُشْتَرِى والزُّهَرة وزُحَل والمَرِّيخ، ونَيِّرَان، وهُما الشمس والقمر، ولا يصحُّ لعالِمٍ أن يتكلَّم عليها إلا بمزج بَعْضِها ببَعْضٍ، فكيف يكون لها الحكمُ، وهى أضدادٌ، والحَاكِمُ لا يضادُّ، وخالقُ الخير والشرِّ إليه يرجع الأمر كلُّه؟ وهو مصرِّفُ الدهور بما يشاءُ! لا إله إلا هو، العزيز الحكيم!.

وليس فى العالم أمرٌ يثبت، وعلى هذا بُنيت الدنيا، وكذلك الدُّوَل والمِلَل: كلٌّ يأتى فى أوانه، ولا يتعدَّى وقته، والدينُ صلاحُ العالَم، ولا عدلَ إلاَّ به، والمُلْكُ يعضده ويحميه، وهو قوام العالَم على ما رتَّب البارِئ عزَّ وجلَّ.

٤- ضرورة التعليم والتجربة:

واعلَمْ أنَّ العقل محتاجٌ إلى التَـعَلُّم، ولا يستحكم تَعَلُّمٌ إلاَّ بتَجْرِبة، ولا تتحكَّم تَـجْرِبَةٌ إلا ما كـان فيهـا بعض النكد والإشغـاف، فالإنسـانُ على ما ضرِي وعلـى أن السعيـد مَن اتَّعَظَ بغـيره، لكن من شـأن الإنسان التـسويف و«لَعَلَّ» و «عَسَى» فإذا احْتِيجَ فى ذاته، أعقبه ذلك يقظةً وحنكةً، وكذلك من أَحْوَجَ إلى نفسه كأنَّما لا يتَّكل على غيـره، فينبغى للعاقل أن يعمل نفـسه فى رياضـة ذلك، والتمـرُّن فيـه، إن لم يحوجـه الدهر، وإلا: فليتـعب ذهنه، ويشغل باله بالفكرة فـيه، خوفًا أن يُضطرَّ إليـه، وإنَّ الدعة غير دائـمة، فإن احتاج إلى نفـسه، وَجَدَها، وإن استغنى عنها، عرف فَضْلَ ما هو فيه، وكانت لذَّته به أشد تمكُّنًا: فـإنه لا يعرف قدْرَ الخـير مَنْ لا يعرف الشرَّ، وإعـمال الفكرة فى هذه المَعـانِى كالتجرُّب بـها: فإنَّ بالاهتمـام بما لم يكن بلاءٌ فى النفس كائنٌ، وذلك الـبلاء مؤدِّبٌ، واعِظٌ، نافِعٌ، مـضمحلٌّ، خـيرٌ من بلاءٍ موجع حال.

وقيل: ليس العلم بكثرة الرواية، إنَّما هو نورٌ يضَعَه الله فى القلوب، ولا عذر للإنسان فى أن يجهل علمًـا يليق به، لقول الله تعالى: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِكْرِ إن كُنتُم لا تَعْلَمُونَ**﴾ (النحل: ٤٣) ومن حُسْنِ إسلام المَـرْء تَرْكه ما لا يعنيه، وليس كلُّ ما حضَّ عليـه ونهى عنه على العموم، بل لذلك كلِّه حُكْمٌ يحسنه العاقل، والجاهل لا يحسنه، وإن جهد جَهْدَه.

٥- التكوين السياسى للمؤلف

وقد كُنَّا ـ مَـعْشَرَ أهـلِ بيتِ المملكة ـ نَرى من آكَـدِ ما نتأدَّب به إعْـمالَ السياسة فى طلب الرياسَة، والسَّـعْىَ لها بكلِّ الوجوه، وإحضارَ الأذهان، ما لَو أنَّ المُـفْرِطَ فى بعض ذلك منّا يكون أفْـقَهَ الناس فى سـائرها من العلوم، لكان عندنا ناقصًا، لا يصلح لهذا الشأن، حتى وقع التنافُسُ على ذلك.

وقتَلْناها نَحْنُ عِلْمًا لرياضة أنفسنا لهـا، وما أَجْرانا عليه آباؤنا، وبصَّرونا فيه من أولِّ نشأتنا.

وتلك صناعةٌ وجب تَعَـلُّمُها لضرورة الـحال، كسائر الصـنائع التى منها معايش الناس، ولا بدَّ لهم من إتيانها، ولَعَـمْرى إنَّ الوالى أكثر عِلْمًا وأحسن عَقْلاً: فإنَّ جميع عقول الناس تعرض لديْه، ويجرِّب فى موضعه ما لا يجرِّب غيرُه فى تقلُّبه فى البلاد، وإليه تهـدى الأخبار، ويتخاصم الناس، وعنده يقع الطلب، وترفع الحاجـات، وتقع العِنَايات، فيرى ويســمع كلَّ يوم جديدًا لم يَرَهُ أمس، وقـال عمـر بن عـبد العـزيز ـ ﷺ : «لَسْتُ كـخَبٍّ، ولا الخَبُّ يخدعنى!» وقيل: «فلانٌ لا يعرف الشرَّ» قال: «ذلك أجْدَرُ أن يَقَعَ فيه!».

ولما كـان المُظَفَّر جَدُّنـا ـ ﷺ ـ قد أوتِىَ من الدعاء والتـمييـز لأحوال الزمان مـا لا خفاءَ به، وأنَّه من آكَـد ما يَجب له النظر فـيه ترشيحُ أحَـد بَنِيه للولاية بَعْدَه، وأنَّ ذلك لا يتمُّ إلا بتـمرينه وإعمـاله فى جميع خِدْمـته، كَىْ يتدرَّب ولا يخفى عليه من أُمـور الدولة ما يحتاج إليه فيـه نفسه، كُنْتُ ممَّن وفَّقه الله لبِـرِّه والانصياعِ لوصيَّـته، فأمر بإخراجى من المكْـتَب إلى التصرُّف

بين يديه، وقال لى ـ نضَّر الله وجهه: «مَعَكَ من الكتابة وتلاوة القرآن ما يكفيك! وهذا أولَى ما تتعلَّم! فعليك بإحضار ذهنك لجميع ما يكون منِّى وما ينقضى فى دولتى أيَّامَ هذه الفتَن، فإنَّ الزمان أشَرُّ، والأيَّامُ أقْصَرُ من أن تُدْرِك تَعلَّم كلَّ شىءٍ يعنى به الملوكُ لأبنائهم!».

فامتثلتُ حدَّه، وأخذتُ نفسى أولاً بالتواضُع له واختصارِ كلِّ شىءٍ يَقَع منه في نفسه أنّى أشْرَهُ به إلى تعجيل الولاية أو الحرص على الرياسة، بل كنتُ أتأبَّى له عن ذلك، ولا أحْكُم بين اثنَيْن إلا عن مشورته ومشاركة أهل السنِّ والعَمَل من وزرائه، وأنْزِل نفسى لهم بمنزلة الابْن، حتى وقع ذلك من أنفسهم موقعًا ارتضونى به للخلافة من بَعْده، واتَّفق فى ذلك رأيُهم مع رأى الجدِّ ـ رحمه الله.

ولم يكن منها نهارٌ إلا وأستفيدُ فيه فائدةً من تَجْرِبة وحُنْكة.

وما كنتُ أجهلُه من الأشياء، أجِدُ له أعوانًا من الوزراء، يعلمونني بالصواب فيه لقلَّة خِلافى عليهم وبِرِّى بهم.

كلُّ ذلك [من] الأسباب التى أذن الله من أجْلها ولايتى من بعده، وقد كان من أهل بيت المملكة مَنْ يصلح لها قَبْلى، ومعى من أخٍ كبير وعَمٍّ وقرابةٍ أتَوَقَّعُ استهدافَهم إلىَّ وتَغَلُّبَهم علىَّ، ما لو أنْفَقْتُ مِلْءَ الأرض على كفايَة شرِّه، ما استطعتُ له، فكفانى الله تعالى ما كنتُ أتوقَّع، وأرانى الخيرة فى عاقبة كلِّ أمْرٍ كنتُ فيه أكرهُه، فنحنُ جُدَراءُ بتعداد نِعَم الله والإنصاف فى شُكْره، كما حضَّ الله عليه فى قوله لنبيِّه ـ ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١١).

وقد كان أبونا سَيْفُ الدولة[١] ـ رحمه الله ـ مُرَشَّحًا للمملكة، كثيرًا حبُّ أبيه له، وجَمْـعُه الأموال من أجْله، وتدريبُه عليـه بكلِّ وَجْهٍ، وكان ـ رضي الله عنه ـ من العقل والكرم وحُسْن الخُلُق والحِلْم ما شُهِـرَ به فى البلاد، واجتمع عليه محبَّة العبـاد، ولم يكن للمُظَفَّر جدُّنا غيرُه، فتوفِّى ـ رحـمه الله ـ ابنَ خمسةٍ وعشرين عامًا، وسنذكر من أحواله مع سائر أمور الدولة ما يَرِدُ بعد هذا، إن شاءَ الله.

٦- صعوبة الإنصاف التاريخى:

وأوَّلُ ما ينبغى تقـديمُه ذِكْرُ دُخولنا الأَنْدَلُس، وكيـفيَّة ولايتنا إيَّاها، إلى هَلُمَّ جراً.

فإنه، مـتى أتَيْنا على خبـر يطيب ذِكْرُه فى هذا التـأليف، للمُعْـتَرِض أن يقول: «هذا أحْـسَنُ لو كان على أصْل يُحْمَـد، وعن ولايةٍ تُرْتَضَى!» فينطق هَذَرًا دون اختـبار ولا إنصاف، على أنَّ الثناء الحـسن لا يقع على الدولة إلا فى مُدَّتها وأيَّام سعادتها، ولو كانت ظالمةً، فلا يقع فيها الذمُّ إلا بعد تَوَلِّيها، ولو كـانت عادلةً، والناسُ مع من سـبق إلا مَنْ نظر بعـين العدل، لا بعـين الهوى، وقليلٌ ما هُمْ!.

ولترَى أن لا شـىء فى العـالم يسعـد وينحس إلا وكـان أحـد الأمرَيْن لا يشوبه غيرُه، ولا يتعلَّق بالسعادة إلا كلُّ مـستحسنٍ من غير تكدير، كما أنه لا تشوب المنحسة ما فيه أدنى سرور، وليس مع الإقبال إدبارٌ إلا تمام المُدَّة.

(١) هو بلكين بن باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيرى بـن مناد الصنهاجى، الأمير الملقب بسيف الدولة ـ والد مؤلف هذا الكتـاب ـ (توفى سنة ٤٥٦ هـ) وترجمتـه مطولة لدى لسان الدين بن الخطيب فى الإحاطة ١/ ٤٣٤.

ولا يتَّفق الناسُ أجمع على مدح أحدٍ ولا على ذمِّه: فإنَّ رِضَى العامَّة أمْرٌ لا يُدْرَك، ولا بدَّ للوالى أن يقضى عند حُكْمه لأحد الخصمَيْن على الآخر ضرورة، فالمَقْضِىُّ عليه انقلب ساخطًا، والمَقْضِىُّ له انقلب راضيًا، وكِلاهُما يتكلَّم على شهوة نفسه، فكيف يتَّفق إجماع العامَّة على خير واحدٍ أو مدحه؟ وإن الله تعالى كان قادرًا على أن يُسوِّى بين [أمور خَلْقه، وجديرًا، وإن] كُيِّفَتْ، أن يرفع بَعْضَهم فوق بَعْض دَرَجاتٍ.

٧- المصادفة وأثرها في التاريخ مثل المنصور:

وإذا اعتبرتَ أحوال هذا العالم على شيءٍ من أمر الدنيا، فإنما تجدُه كائنًا بأرقِّ سَبَب: فمن بين جاهلٍ مسعودٍ أو حاذق مُمَخْرَق، وإذا بَعْثَرْتَ على ما هو فيه، أعَنِ استحقاق تصيَّر إليه، لم تختبرْ من فعاله ومقاله شيئًا يشذ عن العالم، ولا يَشِفُّ على رأى من تَزْدَريه عَينُك، ولأنَّ الجهل في العامة أغلب، والباطلَ إلى عقولها أسرع: استعظَمتْ ما هو عند اللبيب حقير، وتكلَّمَتْ على ما ظهر إليها، ولم تقِسْ عليه بعقولها، ولله ما بَطَن، وللناس ما ظَهَرَ، ولهذا تَرَى صاحب الناموس أرفَعَ ذِكرًا وأطيَبَ ثناءً، وإن كان يُرائى.

وقد كان المنصورُ بن أبى عامر، على دقة شأنه قَبْلُ، ولأنه لم يكن من أهل بيت المملكة، فيستحقَّها عن الآباء، ولا كانت به قدرةٌ على الدنيا، قد حصَّل على عظائم بدهائه ومخرَقته على العامَّة، مع ما هيَّأت السعادةُ له (وكان أقوى الأسباب في سلطانه) وقد ذكر بعض أهل العلم بالتنجيم أنَّه مَنْ كان طالِعُه من البروج الحوت والقَوْس كان أعظم الأسباب في سلطانه أو عقاره.

ولولا قيامُه بدعوة الخليفة، وإظهارُه الانخضاعَ له [فى جميع] ما يأتى ويَذَر إلى طاعته وإقامة أوده، وتوليته الحجابة والوزارة، وإخماله لأهل الدولة الحكَمِيَّة، وتقصيهم بالقتل، متأوِّلاً فى ذلك أنَّ دولتَه تصفو به ويقوى سلطانُه، وأنَّ فى بقائهم كثرة الخلاف وإيثار الفِتَن وهلاك المسلمين، حتى اتسق له ما أمَّل، وبلغ من ذلك كلِّه الغاية القصوى - ولو أنَّ أحداً اشتهر ببعض ما أتى هو به دون تعلُّق بسبَب أو إظهار طاعة [لكان قُتِلَ] من ساعته، ولو كان من أهل بيت الخلافة - إلى أن ورث الأمر ابنه من [بعده، فسار المنصور] بأحْسَن سيرة وأحْمَد طريقة، وكانت له فى بلاد العدوِّ فتكات، نال الإسلامُ فى أيَّامه عِزّاً ما كان بالأنْدَلُس [مِثْلُه] وأذلَّ ما كان النصارَى عليه.

الفصل الثانى

الأحداث الممهدة لقيام دولة بنى زيرى وأوليات هذه الدولة، أيام زاوى بن زيرى وحَبُوس بن ماكسن

٨- الإصلاح العسكرى الذى أدخله المنصور

قدوم بنى زيرى إلى الأندلس وقيام دول الطوائف:

وتوقَّع [المنصور] من أجناده الاتِّفاق على بعض ما يخلُّ بدولته، إذ كانوا صِنفًا واحدًا، وتألُّبهم على معصية أمره، متى أمر بما أحبُّوا وكرهوا، فنظر من ذلك بعين اليقظة، وسوَّل له رأيُه أن تكون أجنادُه قبائلَ مُخْتَلِفةً وأشْتاتًا مُتَفَرِّقَةً: إن همَّ أحدُ الطوائف بخروجٍ عن الطاعة، غلبها بسائر الفِئَات، مع احتياجه إلى تَقْوية عسكره، والزيادة فيه بمن يستطيع على تحلُّل بلاد العدوِّ وتدويخها متى شاءَ، فاستجلب من رؤَساء البَرْبَر وحُماتها وأنجادها مَنْ بلغه فروسيَّتُه وشدتَّه، وتسامَعَ الناسُ بالجهاد، فبادر إليه من شَرْق العِدْوة مَنْ كان لهم من الآثار والمكارم والبأس على النصارى ما لا خفاءَ به، وبهم كان يصول ابنُ أبى عامر على العدوِّ، وهُمْ كانوا العدّة فى الجيش والموثوق بهم عند اللقاء ومعترك الوغاء، وكان من أدْهَاهم رأيًا وأبْعَدهم همَّةً زَاوِرى بن زِيرِى عَمًّا، وبعده حَبُوسُ بن مَاكْسَن ابنُ أخيه ـ ﷺ ـ فإلَيهما كان الرأى والمشورة فى الأمر، والحُكْم على مَنْ دونهم من الأجناد.

فرتَّب ابنُ أبى عامر الرُّتَب، وأظهر هيبة الخلافة، وقمع الشِّرْك، وحضَّ المسلمين عامَّة على الغزو، فعجز عن ذلك رعيَّة الأندلس، وشكوا إليه ضعفهم عن المُلاقاة وشُغْلَهم بالغَزَوات عن عِمارة أرضهم، ولم يكن القومُ أهْلَ حَرْبٍ، فقاطَعَهم على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم، ويعطوا من أموالهم

كلّ عام مـا يقيم به من الأجناد مَنْ يكفيـهم ذلك، على اتِّفاق ورضًى منهم، فضرب عليـهم الأقطاع، وحصَّل فى الدواوين جميعَ أمـوال الناس، وكسرها عليهم [وفرض] بينهم مالاً [يرتزق] منه الجيش، فبقيت تلك الأقطاع عليهم إلى [أن عمَّت الأندلس] عدّة الثوّار و [اتَّبعو] هم على تلك الآثار [ودأبُه] فى ذلك إنما كان على ما وَصَفْناه.

وكان الناس مؤتمنين على ما يعطونه من زكاة أموالهم فى الناضِّ والطعام والمواشِى، يقسـمون ذلك على المساكـين بكلِّ بلدة، ولم يكن الوالى يقرب من ذلك إلا ما يقـيم به الجيش والدولة التى هى قـيام العالم، ولولا حـماية السلاطين للرَّعيَّة، وعزُّ دُوَلهم، وذَبُّهم عنهم، ما طاب لهم عيشٌ ولا عزَّ بهم قـرارٌ، فكان ذلك كلُّه عن سـداد وصلاح وتأوُّل الخـيـر، ولم تزل الأنْدَلُس قديمًا وحـديثًا [عامرةً] بالعُلماء والفُقَهـاء وأهل الدين، وإليهم كانت الأُمور مصروفة، إلا ما يلزم المَلِك من خاصـتَّه وعَبِيده وأجناده من الأخْذ من واحِدٍ ودَفْعه لآخر، لينخَّل بذلك عـسكره ويتخيَّر أفْضَلَه. . . فيه للمـسلمين كفاية وعُدَّة، إذ كانت الأموال التى يعطونها من غيـر أُصولهم، ولا اكتسابهم، إنَّما كان ذلك من وجه النظر للمـسلمين، وأمّا ما كان بَيْنهم من مظلمـة أو قضيَّة وكلُّ حُكْم يرجع للسُّـنَّة، فإنَّما كان لقاضى البلدة.

فلمـا تمَّت الدولة الـعَامـرِيَّة، وبقـى الناس لا إمـام لهم، ثار كلُّ قـائد بمدينتـه، وتحصَّنَ فى حِـصْنه بعد تَقْدِمـة النظر لنفسـه، واتِّخاذه العسـاكر، وادِّخاره الأموال، فتَنافسـوا على الدُّنيا، وطمع كلٌّ واحد فى الآخر، وكذلك لا يصحُّ أمـرٌ بين نَفْسَين، فكيف سلاطين كـثيـرة وأهواء مختـلفة؟. . . إلا الله. . . من كان ظالمًا منهم يتعدَّى. . . للقدر الذى شاء ربُّنا لا شريك له

٩- استقرار بني زيرى في إلبيرة[١] بناء على طلب أهلها:

فلما رأى سلاطينُ صِنْهاجة وبنو زِيرِى اقتطاعَ كلٍّ أمير فى بَلَدٍ لنفسه، وذهابَ ما كانوا عليه من عزٍّ وأثَرٍ، عزموا بالرحيل عن الأندلس والجواز إلى العِدْوة، ليرجعوا إلى مُسْتَقَرِّهم، فانعقدوا على ذلك بعد أمور يطول ذكرُها، وظهور فساد كثير أضربْنا عن إيراده كلِّه، إذ كان مَقْصَدُنَا وَصْفَ دولتنا خاصَّةً، ولا بُدَّ من ذِكْر لُمَعٍ من غَيْرِها عند الاحتياج إليه.

وكان أهل إِلْبِيرة فى بَسِيط من الأرض، وكان بهم من الغشِّ بَعضهم لبَعض ما إنَّ الرجل منهم ليتَّخذ بإزاء داره مسجداً وحَمَّامًا فراراً من جاره، ولا يرجعون إلى طاعة ولا حُكْم والٍ، وكانوا مع هذا من أجْبَن الناس وأخْوَفهم على مدينتهم، لا يستطيعون على قتال أحد، ولو كان الذُّباب، إلا بمن يحميهم ويذبُّ عنهم، فلما بصروا باختلاف سلاطين الأندلس، وأنَّها أضرمت ناراً، وتوقَّعوا أن يتخطَّفهم الناس، وجَّهوا إلى زاوِى المذكور، شاكين ممَّا هم فيه، ويقولون: «إن كُنْتُمْ جاهَدْتُم قبل اليوم، فهذا الجهاد آكَدُ عليكم: أنفُسٌ تحيونها، وديارٌ تحمونها، وعزَّةٌ تأوون إليها! ونحن شاركوكُمْ بأموالنا وأنفسنا: لكم منَّا الأموال والسُّكْنَى، ولَنَا منكم الحماية والذبُّ عنَّا!».

---

(١) إلبيرة: من كور الأندلس، جليلة القدر، نزلها جند دمشق العرب وكثير من موالى الإمام عبد الرحمن بن معاوية، وهو الذى أسها وأسكنها مواليه ثم خالطهم العرب بعد ذلك، وكانت حاضرة إلبيرة من قواعد الأندلس الجليلة والأمصار النبيلة فخربت فى الفتنة وانفصل أهلها إلى مدينة غرناطة، فهى اليوم قاعدة كورها (الروض المعطار).

فقـبل القومُ قـولَهم، واغتبـطوا بمكانهم، واستـبشروا باسـتفتـاح البلدة لغيرها، و. . . أنفســهم من الغدر لتَشَتُّتهم ورجوع أمـرهم كلّه إليهم دون فِئة [تحميهم] ولا جماعةٍ يتوقّع عُصْبَتُها، فأتوهم مُحتَشِدين متألّفين، قد انقطع إليهم كلٌّ من انتمى من البَربَر وتعلّق بهم، ونزلوا ساحتهم، وحيَّوهم بالتُّحف والأموال، وشاركوهم أحسن مُشاركـة، راضين بهم لا ساخِطين، واستجابت لهم عند ذلك مَعَاقِلُ كثـيرة، منها جيَّان[١] وأنظارها، وحِـصْن آشر[٢] مـن الغَرْب.

فلما طاعت لهم البلاد، اجـتمع رأيُهم على أن يتقارَعوا عليـها، وكانت عادةً فى البَرْبَر، كَىْ لا يأنفَ أحَدُهـم ممَّا يصيـر إلى أخيه، فرجعت إلْبيرة فى قرعة زَاوِى، وحِصْنُ آشَر مع جَيَّان فى قرعـة حَبُوس ابْن أخيه جَدِّنا ـ رحمة الله عليهم ـ وتعاقَدَ جـميعُهم على أنَّه، إنْ طرق العَدوُّ جِهَـة صاحبه، يكون الآخَرُ يحميها بنفسه ورجاله.

١٠- رد الفعل الذى أحدثه فى الأندلس قيام دولة بنى زيرى اختطاط غرناطة[٣]:

فلمـا بصـر بفعلـهم ثوّار الأنْدَلُس، جـذعوا منهم، وحـذروا أن تقـوى شـوكَتُـهم، فيطرقـوهم ويحـصِّلوا على بلادهم، لِمَـا اختـبروا من شـدَّتهم

(١) جيان: مدينة بالأندلس، وهى كثيرة الخصب، رخيصة الأسعار، كثيرة اللحوم والعسل (الروض المعطار).

(٢) لدى الإدريسى فى نزهة المشتاق: «وهو حـصن حسن حضـين كثـير العمـارة آهل، وله سوق مشهودة.

(٣) غـرناطة (أيضًا: أغرناطة) مـدينة بالأندلس، وهى من مدن إلبيرة، وهى مـورثة من أيام الثوار بالأندلس، وإنما كـانت المدينة المـقصودة إلبيـرة فخلت وانتـقل أهلها إلى أغرناطة، ومـدَّنها وحصَّن أسوارها وبنى قصبتها حَبّوس الصنهاجى، ثم خلفه ابنه باديس بن حبوس، فكملت فى أيامه وعمرت إلى الآن (الروض المعطار).

ورأيهم، فاجتمعوا فى مُنازلتهم وقَصْدِهم إليهم بأحشادهم، كراهيَّةَ تَوْطيدهم بذلك المكان وبُغْضِهم لجنسِهم، وقَدَّموا على أنفسهم إنسانًا سمَّوه بالمُرْتَضَى، زعموا أنَّه قُرَشىٌّ، كَىْ يستهِلُّوا بخلافته عامَّةَ الناس، وليرجع أمرُهم إليه، ونزل الجمع على مقربة منهم.

وكان قبل ذلك، لما بلغهم احتشادُهم وتألُّبُهم، جمعوا أهلَ إلْبِيرة المذكورة وقالوا لهم: «نحن لم نأتِ لفساد دیارِكم، ولا قَهَرْناكم على استيطانِها، وإنَّما كان ذلك على اختياركم لنا، وهذه الفِئَات مُقْبِلةٌ لطلَبنا: فإن استوثَقْنا منكم، دافَعْنا عنكم، وإن كانت الأُخرى، فأعلمونا: نَمْضِ عنكم على أجمل وَجْهٍ، فَلَنْ نعدم الخَيْرَ بسيوفنا!» فأجابهم القومُ: «اثبتوا فى قتال عدوِّكم والدفاع عنَّا وعن أنفسكم! فنَحْنُ رعيَّتكم الطائعة وأسيافكم القاطعة!» فقال لهم زاوى بن زِيرى: «إذا كان هذا رأيكم، فأرَى من الصواب أن نرتحلَ عن هذه المدينة، ونختارَ لأنفسنا فيما يقرب منها مَعْقِلا نأوى إليه بأهلينا وأموالنا... والحَرْبُ سِجَال...[1] يصيب عندها ولا يصاب، فقد يُظَنُّ عجزًا! وقد أمر النبى - ﷺ - عند احتشاد المُشْركين على المدينة أن يُخَنْدَق حَوالَيْها، وسنَّ الحَزْمَ، مع مدِّ الوَحْى له، فكيف نَحْنُ؟».

وقالوا لأهل إلْبيرة: «لَسْنا نكلِّفكم من الأموال ما تسرَّعتم به، إلا أن تنفقوها فيما يخصُكم من تقوية مدينتكم بحشود رجَّالةٍ منكم، تنفقون عليهم ليكونوا بها لكم أعوانًا: تصرِّفونهم حَرَسًا وجواسِيسَ وما أشبه ذلك، وتحملون من تعرفون أنَّه يستطيع على الجُنْديَّة، أو تبنون لأنفسكم سورًا

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

يتوقَّع بتَـرْكه ثلمـةٌ تدخل بها الداخلة عليكم، وأمَّـا سِوَى ذلك ممّـا يخصُّنا نحن، فاعلمـوا أنه لم نأت الأندلُس إلاَّ وأجلَبْنا مع أنفسنا من الأمـوال ما لا نحتاج فيه إلى أحَدٍ، بانين على الإقامة إن اضطَرَرْنا إليها، ولم نَأتِها عن فاقةٍ ولا سعاية، إنَّما جـئناها رغبةً فى الجهاد، وأن تكون كفايـتُنا التى شهرنا بها على العدوّ دون سائرهم، وأن نفنى باقى أعمارنا فى طاعة الله، إلى أن دفعَتْنا الأقدار إلى مـا تَرَوْن، ونَحْنُ لم نطلب أحَدًا، ولا تعـدَّيْنا على بشر! وهؤُلاء باغُونَ متطاوِلُون، وَمَنْ ﴿بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ (الحج: ٦٠) ومن قُتِل دون ماله وأهله، فهو شهيدٌ!».

فرضى القوم من قـولهم، وزاد ذلك فيهم رغبـةً، واتَّفق رأىُ الجميع أن يخيِّروا لأنفُسهم جَبَلاً مُنيفًا ومَعْقِلاً شامخًا، يبنون فيه ديارهم، ويرحلون إليه بقلَّتهم وكـثرتهم، ويجعـلونه القاعدة، ويخـربون له إلْبِيرة المـذكورة. . .[١] فوقعت أعْـيُنُهم على بسيطٍ جميل، قـد جمع الأنهار والأشجار، وجـميع ما يليـه من البَلَد كلَّه ينسـقى من وادى شَنيلى[٢] المنحـدر من جَبَل شُلَيْـر[٣]، ويصروا بالـجبل الذى فيـه الآن مدينةُ غَـرْناطة موسِّطة للبَلَد كلِّـه: الفَحْصَ أمامَه، وجِهتَيِ الزاوِيَة والسَّطح بجنبتَيْه، ونظَرَ الجبَل وراءَه، فأفْتَنَهم المكان، وعملوا عليـه كلَّ حساب، ورأوا أنه فـى وَسَط النِّعَم وجمهـور الرعايا، وأن العدو، متى نازَلَهُ، لم يطِق له إحصاراً، ولا منعه داخلاً ولا خارجًا البتة، فى كلِّ ما يحـتاج إليه الناسُ من المرافـق، فشرعوا فى بُنيـانه، وتولَّى كلُّ امرئٍ منهم إقامةَ داره من أَنْدَلُسٍ وبَرْبَرٍ، وخربَتْ عند ذلك إلْبِيرَة.

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

(٢) انظر فى ذلك: نزهه المشتاق ٢/ ٥٦٩.

(٣) انظر فى ذلك: نزهه المشتاق ٢/ ٥٦٩.

١١- خروج المرتضى لحرب بنى زيرى وهزيمته:

فلم يكن إلا مُدَّةٌ يسيرةٌ قبل أن يستكمل البُنيان، فإذا بالطوائف الباغية قد أقبلت طامعةً متألِّفةً، ويظنُّون أنَّهم، عند وصولهم، لا ترتفد لهم ساعةً، وقدَّموا كتابًا إلى زَاوِى المذكور، يأمرونهم - بزعمهم - بالخروج أمامَهم على الأمان، وأن لا سبيل إلى البقاء، ولا يتركونهم بذلك الموضع: يُبْلون بذلك العذْر عندهم، وإذا ظفروا بعد هذا، أن لا يقيلوا لهم عثرةً.

فلما قُرِئَ على زاوى كتابُ المُرْتَضَى المُقام لهذا الناموس، جمع رجاله، وخاطَبَ ابنَ أخيه حَبُوسًا، يأمره بالقدوم عليه، فأتى فى جميع عسكره، ودخل المدينة على أعيُنهم، غير مُجانب لهم، ولا مُتكامن منهم، واجتمع بغَرْناطة من صِنهاجة دون الألف من خيرة الخيرة، وكانت الطوائف الباغية فى نحو من أربعة ألف فارس.

فأمر زاوى المذكور [بكتب الجواب من] إملائه، وقال للكاتب: «لا تَزِدْ شيئًا على ما أُملِى عليك! اكتُبْ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (التكاثر: ١ - ٤).

فلما ورد الجواب عليهم، عجبوا من دهائه، وقالوا: «إنَّ هذا الرجل لم يأبَ الطاعة لنا، إلا أنَّه واثِقٌ بنجدته ويمن معه، أو مُوَطِّنٌ على الموت، أو معجبٌ محيَّنٌ!» فزحفوا إليه.

وهشَّ القومُ إلى مُلاقاتهم، فأمرهم زاوى بالثبوت وتَرْكِ الطَّيْش، حتّى يبدو له ما هم فيه، فقالوا بأجمعهم: «لا خَيْرَ لنا فى غير مُلاقاتهم، إذ قد

أيْقَنَّا بأنَّهم لا ينفعنا معهم شيءٌ إلا الظفر بهم أو الموت على أيديهم، ولا مَهْـرَبَ لنا فى الأرض دون قتالهم! إن بقينا، لم يبارحونا، وأحصرونا مع رعايانا إن لم يروا منَّا دفاعًا عنهم! فإمَّا هُلكٌ وإمّا مُلك! وأنَّ موتَنا فى مُلاقاتهم، بعد إبلاء العذر، أحبُّ إلينا من تغلُّبهم على مدينتنا!».

فخرجوا إليهم بأنفس جريئة وعلى الموت مُوطَّنة، وقلوب حَنِقة وللموت طالبة، فلم يكن إلا كصَفْقةٍ بالكفِّ على الكفِّ حتى ولَّوهم الأدبار، وانهزموا أمامَهم مذعورين، يطلبون النجاة بحشاشة أنفسهم، لا يلوى منهم أحدٌ على صاحبه، واتَّبعتْهم صِنْهاجةُ، وانبسطت عليهم أيدى البَرْبَر، يقتلون منهم نهمةَ أنفسهم، ويأخذون أموالهم وما تركوه من أسْلِحتهم، حتّى امتلأتْ من ذلك أيديهم.

وكانت تلك الوقعة أوّلَ ظفر ثبتوا به فى أوطانهم، وهَابَهم الناسُ، وانقادت لهم الرعايا، وتوطَّد مُلْكُهم بغَرْناطة، وطاعت لهم أكثرُ بلاد أعدائهم المهزومين.

١٢- رحيل زاوى بن زيرى[١] إلى إفريقية وموته هناك مسموماً:

وإنَّ زاوى بن زيرى، لما بصر بهذه الحال، ورأى تألُّب أهل الأندَلُس عليهم وبُغْضهم لهم، عمل بذلك فِكْرَته وقال: «قد علمتُ وأيقنتُ أنَّ هذا يكون دابَهم أبدًا، وإن كنّا قد مُنحنا الظفر فى أوَّل صفقة، لم نأمَنْهم على أنفسنا وديارنا كلَّ حين! وهُمْ، إن قُتِلَ منهم واحدٌ، خَلَفَهُ ألفٌ، مع مَيل جنسيِّهم من الرعايا إليهم، فتكون الزيادة فيهم والنقصانُ مِنّا! ولا يموت لنا

(١) انظر فى زاوى بن زيرى: الإحاطة ١/ ٥١٣.

نَحْنُ أَحَد ونخلفه أبدًا!» فنظر من المكان بعين الحقيقة، وزَهِدَ فيه، مع ما عَلِمَهُ من وفاة بَادِيس بن المنصور، والِدِ المُعِزِّ، مَلِكِ القَيْرَوان، وأنَّ ابنه وَلِيَ طفلاً صغيراً، فشرهت نفسه إلى تلك الولاية، وعزم على النهوض إليها، للقَدَر الذى قدَّره الله من إزالته عنها وولاية ابن أخيه مكانه.

وكان لزاوى بَنُون، يعدل كلٌّ واحد منهم ببَدَنه مائة فارس فى نجدته وقوَّة بأسه ورأيه: منهم بُلُكِّين[1] بن زاوى، فأعاب هذا الرأى على أبيه، وقال له: «بَنَيْتَ لغَيْرك، فتكون له بمنزلة الخادم أو الأجير! لا تترك حاضراً لغائب! واثبتْ بمكانك الذى لم تحصِّل عليه إلا بعد مشقةٍ وإشرافٍ من نفسك على الهلاك!» فقال زاوى: «نستخلف على المدينة من شيوخ تَلْكاتَة الموثوق بهم فى المُهِمّات مَنْ يثقِّفها، وينوب منابى فيها، حتى أُباشِرَ بنفسى حال القَيْرَوان وكيفيَّة دَوْلَتها، فإما أن يتهيأ غَرَضُنا، وإلا انصرفْنا إلى مَرْكَزنا».

فتهيَّأ للمسير على سبيل المشاركة للمُعِزِّ، وأن يكون له بالأنْدَلُسِ عُدَّةً وعَبْدًا، وما أشبه ذلك مما يُسْتَعْمَل فى المُشارَكات واتِّصال الأيدى على المُهِمّات، واستَخْلَف من استخْلَفه من الشيوخ ألا يدخلوا عليه داخلةً ولا يُسْلموا من أحواله شيئًا لابن أخيه ولأحَدٍ من خَلْق الله، يُريهم فى مسيره النظر لهم والسعْىَ فيما هو خيرٌ من موطنهم ذلك.

ثمَّ خرج عن البلدة كأنه يُقاد قودًا، فلم يخرج منها بمرحلة إلا وكُتُبُ

(١) جرى الناسخ على كتابة اسم «بلقين» بالقاف، ولكنا فضلنا كتابتها حيثما وردت «بالكاف» أى «بلكين» وهو الرسم الذى يورده ابن خلدون، أوثق حجة فى الأعلام البربرية، وكذلك السلاوى فى «الاستقصاء» وابن خلكان فى «وفيات الأعيان» ١/ ٢٨٧ ولديه: وبلكين، بضم الباء الموحدة واللام وتشديد الكاف المكسورة.

مُسْتَخْلَفِـيه سائرةٌ إلى حَبُوس بن مَاكْسَن، يسـفِّهون رأى زاوى ويقولون له أن يُعَجِّل بالقدوم إلى البلد، وأنه أَحَقُّ بولايته من غيره، قبل أن يطمع فيه من لا يرضونه، أو يَشْرَهَ إليه من فَغَرَ فَـاهُ إليه بزوال زاوى عنه، فلم يتأخر عنه إقبالُ حَـبُوس، وتَلَقَّتْهُ صِنْهاجة بالطاعة والانقياد لمُلْكه، وسمع بخَبَره زاوى، وهو فى طريقه على مـقربة من غرناطة، وندم على ما كـان منه، ولامَهُ وَلَدُه على ذلك.

ويُذْكَر أنه، لما وصل إلى القَيْرُوان[1]، وأحَسَّ بمَذْهَبه بعضُ وزراءِ المُعِزِّ نكروه وخافوا دواخِلَه عليهم، وأن يكدِّر مـا صفا، ورأوا أن ولاية المُعِزِّ على طفوليَّته، وعـيشهم معه، وتحكُّمَهم عليه، أَخَفُّ عليـهم من تَوْلِيةِ داهيةٍ مثل زاوى، لا يملكون معه من قِطْـمِير، فَدُسَّ إليه مَنْ سَـقاهُ السُّمَّ، ومات بتلك البلاد.

١٣- إمارة حبوس بن ماكسن[2].

وصَفَـا الأمْرُ لحَبُّوس بـن مَاكْسَن، وسار بأجْـمَل سيرة وأعْـدَل طريقة، وصرف أحكامه أجمع إلى قُضاة البلاد، وتعفف عن كلِّ شىء، وجَمُدَتْ يَدُه على الحـرام والأموال، فـأحبَّـه الناسُ، وأَمِنَتْ معـه السُّبُلُ، وقل الفـسادُ، وارتفع الجورُ.

---

(١) القيـروان: هى قاعدة البلاد الإفـريقية وأمّ مدائنها، وكانت أعظم مدن المـغرب نظراً، وأكثرها بشراً، وأيسرها أمـوالا، وأوسعها أحوالا، وأربحهـا تجارة، وأكثرها جباية، وبالجـملة فمدينة القيروان دار ملك المغرب، ورأت من الممالك والمملوك والدول والفقهاء والعلماء والصالحين مـا لم يكن مثله فى قطـر من الأرض، ثم محنت بالعـرب والفـتن، وخلت من الناس وذهبت نضرتها ومحاسنها (الروض المعطار).

(٢) انظر فى حبوس بن ماكسن: الإحاطة ١/ ٤٧٧.

وكان الرجلُ مُحبًا فى أقاربِه وبنى عـمِّه، لم يستأثر عليهم بشىء، وقسم عليهم البلاد، وأمـر كلَّ قائد أن ينتخب من الرجال عـدداً يليق به وما يكون فى قدر مـا أعطاه من الجهَات، وأنهى إليـهم: «إلا فائدة تفيـدونى بها تُنفَق عندى من مال أو تحـفة غيـر الاستكثـار من الأجناد، فَمتَى دعـوتُ أحَدَكم لمُـهِمَّـة، وبَصرْتُ عـسكرَه أكثـر عدداً وأجـود خيـرةً، فذاك الأثيـرُ عندنا، والحَظىُّ لَدَيْنا» فسـارَعَ الأجنادُ إلى اللحقة، وزاد الجيش فى أيـامه، وقامت هِمَمُ الرجال على ساق، وتنافسوا على خصال الحروب ومقاطع الشجعان.

وكان بنو عمِّه كلُّ إنسـان منهم سُلْطانًا فى ناحِيَته، قد حاز جِـهتَه وانفرد بعسكره، وكان حَبُوس ـ رحـمه الله ـ لا ينفرد برأى دُونَهم، ولا يقطع مقطعًا إلا بمشورتهم، حتى إنهم ليجتمعون معه للحُكم فى موضعٍ خارجَ قصره دون السير إليه، وذلك استحسانًا منه، كَىْ لا يحصل عليهم ما يقع فى أنفسهم منه ذلة ولا ما ينقمـون عليه، وكان رفيقًـا بهم، مُحْسِنًا إليهم، مؤلِّفًـا لكَلِمتهم، وكان من قـوله: «إنَّ صِنْهاجة عندى مثل الأسـنان فى الفم: إن عدمتُ منهم واحداً، لا نخلفـه أبداً!» فكانت له بهم الصولة على النـاس والاستطالة على العدوِّ، ومـا كان كلُّ أحَدٍ يرى تَركَه غنيـمةً والسلامـة منه من أعظم الفائدة، فضلاً أن يطمع فى شىء من جِهَاته، أو تُحَدِّثَه نفسُه بغزو بعض بلاده.

١٤-المؤامرات التى دبرت لإسناد الإمارة إلى يَدّير بن حباسة

موت حبوس:

وكان لحَبُـوس بن ماكْسَن ـ رحمه الله ـ ابن أخ يُعْرَف يَدّير ابن حُـبَاسة، وكان عنده آثَرَ من وَلَده، للَّذى كان يرَى من نباهته، وإقباله على قراءَة الكُتُب

ومُجالَسة الفُقَهاء، وهو الذى كان يلقى به الرُّسُل، ويصرفه فى المُهمّات، وكان بارا بحَبُوس وبجميع أهل المملكة، وكان من أَحَبِّ الناس فيه كاتِبُ حَبُوس المعروف بأبى العباس، ولِمَا يرَى من تواضُعه وحُسن مُشاركته فيما عَنَّ له من سبَب، وطار له بذلك نامُوسٌ كبيرٌ عند صِنْهاجة حتى آثَرُوه على غيره.

وكان بَادِيس بن حَبُوس جَدُّنا ـ رحمه الله ـ كبير النفس، عالى الهمَّة، حادَّ المزاج، لا يستطيع أَحَدٌ [أن] يمَخْرق عليه فى أمرْ مِن الأمور، ولا ينكسر لأحَدٍ من بنى عمِّه، ثِقَةً منه بسعادته، وإنَّ الانخضاع والتمريض فى القول لا يَغْنِيه ذلك ولا يزيد فى أيَّامه، وكان ذلك كلُّه منه فى حزم ورَوِيَّة، لا يفسد جانبًا حتى يصلح آخَرَ، ويضرب بعضهم ببعض، فوجست أَنْفُسُ البعض منه، وأُشْرِبوا هَيْبته ومخافته، وتوقَّعوا، إن صار الأمر إليه، أن يجرِّبهم على خلاف ما عهدوه من أبيه، فأضمر أكثرُهم لهُ الغوائل، وآثَرُوا عليه يَدَّيْر المذكور، وتمنَّوا بولايته: كلُّ ذلك لشقائهم وتمام أيَّام سعادتهم!.

وسَمِعْتُ المُظَفَّرَ بادِيس ـ رحمه الله ـ يَصِفُ بعض ذلك فى مجلسه ويقول: «كنتُ واقفًا بين يدى حَبُوس أبى ـ رحمه الله ـ حتى انْتُدِبَ إليه من شيوخ صِنْهاجة من قال له: «إنَّ من آكَدِ ما تنظر فيه أن تولِّى على أمرك مَنْ يخلفك ممَّن تُرْجَى بَرَكَتُهُ للمسلمين ولبنى عمِّك! فإنَّ الموت يغدو ويروح!» فقال أبو العبَّاس كاتِبُه: «ليس يصلح لهذا الأمر إلا يَدَّيْر، لطهارته، وعفافه، ومحبَّته فى الناس!» وكان فى الجُمْلة من شيوخهم صديقٌ لى اسْمُهُ فِرْقَان، قد اصطَنَعْتُه واستملْتُه، فسمعتُ ردَّه على أبى العباس، وهو يقول له:

«ما ينبغى لك أن تتكلَّم بهذا! كيف يُقَدَّم للأمر غَيْرُ ابنه، وهو مستطلعٌ بجميع الأُمور، وقـولُك أنتَ وقولُ غَـيْرك باطِل! كـأنِّى، والله، أرَى موتَ حَـبُوس وولايةَ بادِيس من بعـده، وإنَّ يَدِّيـرَ سـيتـحـامَق عـلى باديس، ويظفـر به، ويقتله!» قال باديس: «فسرَّنى كلامُه، وأعطيتُه عليها ألف دينار».

وكان الأمـر بعـد ذلك على ما وصف فِـرْقان، ثمَّ إنَّه اطَّبَى مـن وجوه صِنْهاجة أقوامًا، ووعدهم بالإحسـان، وسعى بجهده على حلٍّ تلك الصفقة، إلى أن كلَّموا أباه فى تَوْليته، فرضى ذلك، وأمر الناس بانصياعهم له، وزجر يَدِّير فى ملأ مـن الناس، وقال له: «لا تشره مـا ليس لك، يا بن حُبَـاسة!» يُخاطِبه بهذا اللفظ.

فـوقع من ذلك فى نفس يَدِّير عـداوة مجـدَّدة لباديس، وعـمل من ذلك الوقت على خلافـه ومُكابرتِه وإجمـاع الجماعـات عليه، وشتَّت أقـوامًا من صِنْهاجة، حتى صاروا معه، ووَالَى بُلُكِّين شقِيقَ باديس ـ رحمهما الله، وكان من أهل البأس والنجدة، غير أنَّه لم يكن له معرفةٌ بسياسة المُلْك، ولمّا رأى بعضُ أصحـابه موالاته لبُلكِّين وسـعْيَه له فى ظاهر الأمـر، لامَهُ على ذلك، وقال له: «إن كـنتَ لا تسعَى لنفـسك، ويكون من سَعْـيك لغَيْـرك ما نَرَى، فبادِيسُ أحقٌّ بذلـك، الذى هو الأكبر والأسعد، وله الرياسـة!» فكان جوابُه لقائل ذلك: «ليس سَـعْى لبُلُكِّين إيثارًا منِّى له على نفـسى، غَيْرَ أنَّه صـحيحُ النيَّة، غَيْرُ حاذِق بمكايد المـملكة، وهو شقيقُ الذى أطْلُبُ، ولن أجدَ لطلَبه أقْدرَ على ضرِّه من أخيـه! فإنَّما أنا أصيدُ به! فلو اتَّسقـت لى الأمور، وتهيأ قَتْلُ بادِيس على يدى أخيه، كان أمرُ بُلُكِّين من بَعْده هيِّنًا، وخَلْعُه مُمْكنًا!».

فكان أبَدًا يحضُّه على قتل أخيه، ويُريه السعْيَ له، وكان الأخُ في ذلك مُتَشَبِّثًا في أمره مُشْفِقًا على أخيه، إلى أن تُوفِّي حَبُوس بن ماكْسَن - رحمه الله.

الفصل الثالث

إمارة باديس بن حبوس

(١) من اوليتها إلى موت ابن نغرالة

١٥-أولية إمارة باديس بن حبوس[1] وتعاظم الوزير اليهودى أبى إبراهيم:

وولى الأمر من بعده جدُّنا باديس ـ نضَّر الله وَجْهَه ـ فحاولَ أموراً كباراً، وشَقِىَ مع كلِّ أُمَّةٍ: صِنْهاجة يطلبون مكانه مع يَدَّيْر، وسلاطينُ الأندلُس يرمُون بلاده، وهو فى ذلك كلِّه حسنُ السياسة، صبورٌ على الأذيَّة.

وكان أبو إبراهيم اليهوديُّ كاتبًا بين يدى أبى العبَّاس كاتب حَبُّوس، ولمَّا توفِّى أبو العباس المذكور، وترك بَنِينَ، أقام حَبُّوس ـ رحمه الله ـ أكبَرَهم عِوَضًا من أبيه، واستعمله مكانه، وكان فى الابن صبوةٌ لا يرتبط معها إلى خدمة الرياسة، فمكر به أبو إبراهيم اليهودى، ولزم خدمة الرئيس، وصار، متى عاب وَلَدُ أبى العبَّاس، يحضر أبو إبراهيم، فيسأل عنه حَبُّوس، فيقول معتذرًا فى الظاهر ومطالبًا له فى لَحْنِ القول: «وَلَدُ أبى العبّاس، كما ترى، صبىٌّ يُؤثِر الراحة، وأنت جديرٌ بالإغضاء عليه وإقامة عذره، وأنا عَبْدُه، أنوبُ منابَه، فمُرْنى بما شئتَ: يتهيَّأُ ذلك!» فلم يزل على هذا أبدًا حتى تمكَّن، وظهرت خدمتُه وسَعْيُه فى ضمِّ الأموال.

وكان مع هذا قد ميَّز عن باديس سعادتَه ودهاءه، فافترض السَّعْىَ له والتخدُّمَ لإرادته ما دَامَ أَمْكَنَهُ ذلك، فى وقت المناوِينَ له والقائمين عليه، للذى قدَّر من أيامه معه.

---

(١) انظر فى باديس بن حبوس: الإحاطة ١/ ٤٣٥.

فلما اتَّفق أعداؤُه مع يَدَّيْر عليه، شاركـوا فى ذلك أبا إبراهيم، واجتمعوا فى منزله، يرومون قَـتْلَ باديس وإقامـة يَدَّيْر، وَعَدَهم على الاجتـماع عنده، وتقدَّم إلى باديس، وأخـبره الخبـر، وأتى معه إلى الـمنزل، وقال له: «ليس الخبـر كالعـيان! اسمَع بأذنِك وَعِ بقلـبِك!» وهو بموضع مرتفع عـلى البيت الذى يرومون فـيه عَمَلَهـم، وأبو إبراهيم فى ذلك كلّه يقول عند مـحاورتهم كالمـخاطِب للـبارئ: «يا مَنْ يَرَى ولا يُرَى!» وهو يعنى بذلك باديـس جدَّنا الذى يَرَاهم ولا يَرَوْنَه، فشكر ذلك باديس لأبى إبراهيم، وأيقن بِثِقَته وأمانته، وصار له خادمًا من ذلك النهار، وشاوَرَه فى أكثر رأيه مع بنى عمِّه.

وكان فى اليهودى من الكيس والمُداراة للناس ما طابَقَ الزمانَ الذى كانوا فيه والقـوم الذين يرمونهم، فاستعمله لذلك اسـتيحاشًا من غيـره، ولِمَا كان يَرَى من طَلَبِ بنى عمِّه له، ولأنَّ هذا يهودىٌّ ذِمِّىٌّ، لا تشرهُ نفسُه إلى ولاية، ولا هو أَندَلُسِىٌّ، فـيتَّـقَى منه إدخالَ داخِلـةٍ مع غيـر جنسه من الســلاطين، ولاحتياجه إلى الأموال التى يطَّبى بهـا بنى عمِّه، ويحاول بها أمرَ المُلْك، لم يكن له بُدٌّ من مثله أن يجمع له من الأموال مـا يُدرك معها الآمال، ولم يكن له تَسَلُّطٌ على مُـسلِمٍ فى حق ولا باطل، ولأنَّ الرعايا أكثَـرُهم بتلك البلدة، والعُمَّـال إنَّما كانوا يَهُودًا، فكان يجـبى منهم الأموال ويعطيه، فـيلقى ظالمًا منهم إلى ظلمة، يأخـذ منهم ما [يمـلأُ به] بيت المال، وإقامـة أود المملكة أَوْلَى به منهم.

١٦- فشل المؤامرة التى دبرها يدير بن حباسة ضد باديس

فلما ولى باديس، كَثُرَ عليه الخلافُ والهَرَجُ، واتَّفق رأيُهم على ما قدَّمنا على قتله وتولية يَدّيْر. وأعطى على ذلك أقوامًا المثاقيلَ والصكوكَ بالإنزالات القويَّة.

وكانت عادة السلطان أن يخرج إلى موضعٍ يُعرف بالرَّمْلة، وبإزائها مُنْيَةٌ كان يحكم بها حَبُوس أبوه، وكان لها بابانِ [فاتفقوا] على أن يقيموا المَلْعَبَ، ويقتلوه عند خروجه من تلك المُنْيَة، وهُمْ قد تسلحوا بالدروع من تحت الثياب، عازمين على الشرِّ.

وكان ممَّن ارتُشىَ على ذلك شيخٌ من صِنْهاجة يُعْرَف بِفرقَان، أُعْطِى خمَسمائة مثقال وصكًا بقَرْيَةِ قُولْجَر من عَمَل السَّطْح، فقال فى نفسه: «لم أَجِدْ فُرْصةً نحظى بها عند باديس أَمْكَنَ من هذه!» فجعل أنَّ الفَرَسَ زَادَ به فى جَرْيِهِ، كأنه جمح، حتى دخل المُنْيَة، وألقى باديس على الخروج من ذلك الباب، فقال له مختلِسًا: «انْجُ بنفسك واخرُجْ من الباب الآخر! فإنَّ الملأَ يأتمرون بك ليقتلوك!» وأراهُ الدنانيرَ التى أُعطى على ذلك، فخرج باديس من الباب الآخر، يجدُّ فى السير إلى قَصَبَتِهِ، وهُمْ لا يشعرون، ينتظرونه.

فبينما هُمْ على ذلك، إذا بعَلِىٍّ بن القَرَوِىٍّ وأصحابه من وزراءِ باديس وثِقاته قد أقبلوا إليهم، فقالوا لهم: «إنَّ السلطان وَرَدَ عليه من بعض أَنْظاره خَبَرٌ مُقْلِقٌ وجب الانصراف له، فاعذروه فى تخلُّفه عنكم! ومع هذا، فإنَّه لم

يَخفَ عليه شيءٌ!» فلما سمع القومُ بذلك، فكلٌّ من كان فى نفسه خَبَرٌ هرب على المقام، وهرب يَدَّيرُ بنُ حُباسة، لا يلتفتون على شيء، يطلبون النجاة بمُهَجهم.

ثمَّ افتضحت القضايا كلُّها لباديس من بعد هروبه، ومشى إليه بالنصائح كثيرٌ ممَّن بغاهُ قبل ذلك، وطلع إليه أخُوهُ بُلُكِّين، وبكى بين يديه، وسأله العَفْوَ عمّا أدْخَلَهُ فيه الفاسقُ ابنُ عمِّه، وأنَّه لم يَزَلْ به أبدًا يروم ذلك منه لولا تَثَبُّتُهُ وشفقتُه عليه، وإنَّ يَدَّير خرج عن البلدة، وصار فى حيِّز الأعداء، وكلُّ رئيس قد انتدب إلى فتْنة جدًّا ـ رحمه الله ـ ينحازُ هو إليه، ويصير من أعوانه وعلى أجناده، يَدُلُّ بهم البَلَد، ويُريهم المَخادِع، ويكشف لهم من عَوْرات الجِهة ما خَفِيَ عنهم، لا يفترِ بالضرب عليه وتَهتيكِ بلاده، وجدُّنا فى هذا لا يأوى معه إلى راحة، ولا يقرُّ به قَرارٌ.

وصِنْهاجة مع هذا يخاطِبُونه، حتى إنه وقعت بيد السلطان باديس ـ رحمه الله ـ كُتُبٌ كثيرةٌ من عند صِنْهاجة إلى يَدَّير، تضمَّنت أزيَد من مائتىْ رَجُلٍ من الأكابر، فغضب لذلك، وهَمَّ بقتلهم، وشاوَرَ أبا إبراهيم فى الأمر، فقال له: «أرى من الرأى ألاَّ تُؤنِّبَ أحَدًا على هذه الكُتُب، ولا تعلمهم أنَّها صارت إليك، وأن تأمُرَ الآن بنارٍ تحرقها بها وتطفئ أثَرَهَا، ورأسُ العقل مُداراةُ الناس، فإن عاقَبْتَ، كم عَسَى [أن] تُعاقِب، وهُم أجنادُك وأجنحتُك! فاحتَلْ للأمر بغَيْر هذا الوجه!» فقبل نصيحته، واستعان ببَعْضهم على بَعْض، وأفشى العطايا، وضرب الابْنَ بأبيه والأخَ بأخيه.

فكان دأب يَدَّير هكذا أبدًا، لا يقرُّ عن الضرب على بلاده ومعاودة ذلك

بلا سآمة ولا فترة، إلى أن أظفره الله به وصار فى ثِقافه، وذُكِرَ أنَّه مات مقروعًا حَتْفَ أنْفه، وتأتَّت الأُمور لباديس من بعده، وصفا له الجوُّ.

١٧- انتصار باديس على زهير صاحب ألمرية (١).

وأوَّل فَتْحٍ أفاءَ الله عليه هزيمتُه لزُهَيْر الخَصىِّ والِى ألْمَرِيَّة، وكان له كاتبٌ، يُعرف بولَد عبَّاس، من أشدِّ الناس حماقةً واستخفافًا، مُثيرًا للشرِّ، مؤَرِّشًا بين الملوك، وكان الغالِبَ على أمر زُهَيْر، إذ لم يكن زُهَيْر يصلح لشىء لغباوته وجَهْله، وكان قد جمع كلَّ خَصىٍّ بالأنْدَلُس واحتفل، فبالغَ، وأدركه الطمع فى غَرْناطة، لِمَا بلغه من موت حَبُوس بن ماكْسَن، فأتى حتى نزل على مقربة منها، بموضع يُعرف بالفُونت، محتقرًا لمن وَلِىَ غرناطة، يزعم أنَّهم أصاغِرُ وأمْرُهم مختلٌّ بعد حَبُوس، لِمَا أراد الله من هلاكه وهلاك جنسيِّه الخصيان.

وكان جدُّنا باديس، رحمه الله، قد رأى عند ذلك رُؤيا أنَّ الحَوْرَ بغرناطة قد سقط إلى الأرض جميعه، فهالَهُ ذلك، وخشى أن تكون الوقيعة عليه فأرسل فى [طلب] المُعَبِّر وقصَّ عليه، فقال له المُعبِّر: «أبشرْ بهذه الرؤْيا! إنَّ الحَوْر

---

(١) سوف ترد فى السياق أكثر من مرة، وقد وضعها المحقق فى حرف الميم، والصواب وضعها فى حرف الألف، والمرية Almeria ثغر من ثغور الأندلس الشهيرة يقع فى جنوب أسبانيا على البحر المتوسط شرق مالقة، وهى مدينة مشرقة جميلة الموقع والتخطيط، وكانت أيام الدولة الإسلامية من أعظم ثغورها الجنوبية، وكان سكانها يومئذ يزيدون على مائة وخمسين ألفا، وهم اليوم لا يعدون ستين ألفا، وقد سقطت ألمرية فى يد النصارى سنة ١٤٨٩م، وما تزال تقوم بها حتى اليوم أطلال العقبة الأندلسية القديمة، وبها عدة أبراج منيعة تشرف عليها من علٍ، ولألمرية ميناء جميل يرسو به كثير من السفن (الإحاطة ١/ ٢٣٩ هامش ٤) وانظر لذلك أيضًا: الروض المعطار، ص ٥٣٧.

شبيهٌ بالخصيان، الذى لا طَعْمَ له، ولا أصل يتورَّك عليه، وهُمْ بهذه المرتبة، ولا شكَّ فى سقوطهم وبوارهم على يديك!» فكان ذلك.

وقدَّم على العساكر أخاه بُلُكِّين، وكان من أشجع الناس، وكان باديس، عند موت أبيه، قد اختصَّه بكلٍّ ما شاءَ وفَضَّلَه فى الميراث على نفسه إلاَّ الناضَّ الذى تحتاجهُ المملكة، فلقى العسكر المرذول، فلم تكن إلاَّ ساعة من النهار حتَّى انهزم وقُتِل جميعُ من كان فيه من الخصيان، وخفى زُهَيْر عن العسكر، فلم يوجد حيًا ولا ميتًا، وكانت تلك أوَّلَ سعادة باديس، كما كانت هزيمة المُرْتَضَى أول سعادة أبيه، ثمَّ افتتح البلاد، وصارت إليه الأنظار التى تَلِى ألْمَرِيَّة، وظفر بعدوِّه كاتبِ زُهَيْر، وامر بقتله متأوِّلاً لإثارته الفتنة، ونقم عليه أشياءَ كثيرةً قَبْل ذلك، من أقاويل خَشِنة ومُعامَلات قبيحة عَرَّفَهُ بها.

وقرَّ مُلْكُ باديس جدِّنا قرارَهُ، وطار له الذِّكْرُ، وكانت له من الهَيْبَة فى الناس أن لم يَجتَرِئ عليه أحَدٌ بعد تلك القضيَّة.

ثمَّ إنَّ بلكِّين أخاه لم يلبث بعد تلك الوقيعة إلا يسيرًا حتى مات ـ رحمه الله ـ وكبِرت سنُّ سَيْف الدولة فى حال الحداثة، وهو أبونا، وترك عمُّه بُلُكِّين ابنًا كان يناوئُه ويخشى منه ضرًا كثيرًا، ويتوقَّع على نفسه من المُطالَبات بتلك الأخبار، فخرج عن البلد بجميع مالِه وتركةِ أبيه، لم يعترض له شىءٌ.

١٨- شخصية الأمير بلكين سيف الدولة والد المؤلف:

ولم يكن للمُظفَّر جدِّنا غير بُلُكِّين أبينا ـ رحمهم الله ـ وكان رفيقًا به، مشفقًا عليه، حَذِرًا من أعدائه وبنى عمِّه أن يُبلغوه من بعده بما بُولِغَ هو به بعد وفاة أبيه، فكان لا يحسُّ من أحَدٍ داخلةً ولا نفاقًا إلا ونظر فيه بما يوافق أمْره من إخمال او نَفْيٍ أو أخذِ مالٍ، لئلاَّ يبقى لابنه مَنْ يناوئُه ويُذِلُّه.

وكان سَيف الدولة حليـمًا رَفيقًا، ضدَّ أبيه فى كلٍّ حـال، فإنَّه لم يجرِّب من الأمـر، ولا ابتُلِيَ بما ابْتُلِيَ هو به، وكـان يَعِدُ الناسَ بالـجميل، ويـقول لهم: «أنا أُنسيكم طريقـةَ أبى!» ومن استوجب من أبيه القـتل أو أدنَى ضَرَرٍ، كان هو الذى يعنى بأمـره، ويتشفَّع فيـه عند الأب، حتى يتخلَّصه، فـأجمع الناس على محبَّته خاصَّـةً، وعامَّةً للذى يرون من مكارِمِه، مع تمكين أبيه له وبَسْطِ يده على الأموال.

١٩- نشاط يوسف بن نغرالة اليهودى ومؤامراته:

وكان فى زمانه للـمُظَفَّر أبيه وَزيرانِ ابنا القَرَوىِّ: أحَـدُهما علىٌّ، والآخر عبد الله، ممَّن نشأ معه، وكانـا حَضِيرَيْهِ فى المكتب، وكانا قائدَى العسكر، وإليهما كان يرجع الرأىُ فى أُمور الفِتَنِ، وكان أبو إبراهيم الشيخُ مُؤْذنًا لهما، مستعينًا بهما.

فلما توفِّى أبو إبراهيم، وترك ابْنَهُ وزيرَ جدِّنا، ورث لأبيـه أموالاً كثيرةً، ووصَّاهُ بأن يسعى فى طلب الوزراء عند استقامة الدولة للرئيس، وعرض عليه الأبواب التى منهـا يكون حَتْفُ كلٍّ واحد مـنهم، لِمَا كان بأيديـهم من البلاد واستئثارهم بالجبايات.

فجـعل الخنزير نَفْسَـه لذلك، وكان المُظَفَّـر ـ رحمه الله ـ لا يـقبل منه مُطالَبـةً لمُسْلِمٍ، ولا عرَّضــه لذلك، غيـر أنَّه كان يتلطَّف بالأمـوال، ويعطى لثِقـاتِه وعَبـيدِه ما يجـعلهم فى المُطالَبة على هواهُ، وهو سـاكتٌ، لا يتكلم بشىءٍ مثل أن يَدُسَّ فى طَلَب أحَـدٍ على يدى مُوَفَّق الخصىِّ صـاحِب المدينة من ثِقات باديس، وكان منتصبًا لهذه المشَـابِه، فيأتى مُوَفَّق المذكور بنصيحة

إلى السلطان ممّن يزعم أنّه من أهل الشرّ، فيُرسَل فى اليهودىّ ويُقال له: «بلغنى أمرٌ كذا وكذا» فيُريه اليهودىُّ التبرُّؤَ من ذلك بأن يقول له: «كلُّ ما نُقِل إليك كذبٌ، فتثبتْ!» فيقول له الرئيس: «أخبرَنى مَنْ لا شكَّ عندى فى نصيحته!» فكان آخرُ ما يقول له: «ما قَطَعُ الشرِّ إلاّ سياسةٌ» وكان لمباهاتِه ومَخرَقتِه، يُرى الناسَ أنّه يقدر، ولم يكن ذلك منه، إلاّ عن تحيُّلٍ ومكرٍ،

فلما توفّى أبو إبراهيم الشيخ، وكان ابنُه فى سنِّ الصبا، كَرِه توليتَه جدًّا، وقال لعلىٍّ المذكور: «التزِمْ خدْمة المملكة، فأنْتَ أحقٌّ بها!» فأبى ذلك علىٌّ، واطَّباهُ وَلَدُ أبى إبراهيم بالأموال الجسيمة، وقال: «ليس أرغبُ إلا أن أكونَ عَبْدَك وتَرْبيَتَك، ولك الأمرُ، وأنا كاتبٌ بين يديك، وأقوم بنَفَقَتك كلِّها، ولَوْ كان أهلُكَ عَدَدَ الحَصَى!» فطمع علىٌّ فى قوله: وكلَّم السلطان فى ذلك، وقال له: «إن أبقَيتَ على وَلَد أبى إبراهيم ناصِحِك، فأنا أرجو ذلك لولَدى من بعدى، وأنا المُشرِفُ عليه» ففعل السلطان ما قال، وقدَّمه على العُمَّال والجبايات، وكان يعطى لعلىٍّ صدراً من دولته إلى أن كَبِرَت سنُّه.

واظهر [ولَدُ أبى إبراهيم] للسلطان نصائحَ كثيرةً حظِيَ بها عنده، وتَبَرْمَكَ على علىٍّ وغيره، واستوثق من جانب الرئيس ما لم يَسأل به عن علىٍّ ولا عن أحدٍ من خلق الله، وكان فيما قال له: «إنَّ الذى يأخذ علىٌّ أنتَ أولَى به، والرجلُ كثيرُ الأولاد والضَّفَف، ويذهب مالُكَ إن لم تَحْمِنى وتعضدنى، وهو متى تملأ، طَمِع فى مُلْكك! وأنا رجلٌ ذِمِّىٌّ لا همَّةَ لى إلاّ خِدمَتك وجَمْع الدراهم لبيت مالك!» فوثِقَ الرئيس بقوله، وقاس عليه بعقله، ومنع

منه عليّا وجميعَ الناس، ولما رأى عليٌّ تأخُّرَهُ وتَقَدُّم اليهوديِّ، ندم على ما كان منه أوّلاً، وفاتَهُ من الأمر ما لم يقدر معه على حيلة عند السلطان، وغَاظَه ذلك وأكْرَبَهُ.

وكانت مَدينة وادي آش[1] بيَدِه، قد قدّم عليها أخاه عبدَ الله، وكان يأكُلُها طعمةً، ولا يعطى منها فوق خمسة عشر ألف دينار دَرَاهِم، وهى تُساوِى أزيَد من مائة ألف دينار ثُلُثِيَّة، فدخل عليه اليهوديُّ بهذه المُطالبة وقال للسلطان: «اقبض وادى آش من عنده، ولك منّى فيها أزيد من مائة ألف!» فقال له: «لستُ أقدر على أخذها منه بهذا الوجه، فتكون مفاسدةً، وهم متصرِّفون فى خِدمَتها» فوجد اليهوديُّ السبيلَ إلى حيلة فى نزعها باسْم سيف الدولة أبينا، وقال: «لآخُذَنَّ البلدة من يد عدوٍّ، فأضعُها فى يد سلطان يشكرنى عليها، ويَرَى لى ذلك عن تخدُّم ونصيحة!».

فقال لأبى: إنه يلزمنى طاعتُك ونصيحتُك لأكون لك كالذى أنا لأبيك، وأراك كثيرَ الذُّرِّيَّة، تلزمك نفقَات وتجمُّل الرياسة، ومن الغبن أن يكون وزراء والدِكِ أغنى منك! وهذه وادى آش، بِنتُ غرناطة، لا تجمل إلاّ لك، وأنا أثَمِّرُها وأجعلك تأخذ فيها مائة ألف!» ففرح لقوله والدِى ـ رحمه الله ـ وشكر له رأيه، ووعده بالزيادة فى مرتبته إن صار الأمرُ إليه.

ثمَّ مضى إلى الوالِد، فأخبره الخَبَر، وقصَّ عليه أمْرَ ابنه، فقال له

---

(١) وادى آش: مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة كبيرة خطيرة تطرّد حولها المياه والأنهار، ينحط نهرها من جبل شلير، وهو فى شرقيها، وهى على ضفته، ولها عليه أرحاء لاصقة بسورها، وهى كثيرة التوت والأعناب وأصناف الثمار والزيتون، والقطن بها كثير، وكان بها حمامات، ولها بابان: شرقى على النهر، وغربى على خندق، وعليها سور حجارة (الروض المعطار، ص ٦٠٤).

المُظَفَّر: الآن وجب أَخْـذُها من أولاد القَرَوِىّ» فأرسل على المـقام فى علىّ وقـال له: «إن ابنى مـحـتاجٌ إلـى المال، وطـلب منِّى وادى آش، ولو كنت آخِذَها منك ومُـعْطِيَهـا لقِرْنك، لَعَـزَّ عليك! ولكن يجب لك أن تتسـرَّع بها لابنى» فلم يكن جـواب علىّ إلا أن قال لـه: «ما صَلُح للمَـوْلَى على العَبْـدِ حَرَامٌ!» فضمَّهـا اليهودىُّ خادِمًا لأبى فيها، وشرط عليـه أن يعطيه رَسْمَها فى أنجُم العام، واتفَقَا على ذلك، وصارت المودَّة متمكِّنة بين الابْن والوزير مُدَّةً طويلةً.

٢٠- موت الأمير بلكين مسموماً:

فلما رأى وزراءُ الدولة وعـلىٌّ واخوه تَمكُّن اليهـودىِّ عند السلطان وعند الابْن أغـاظهم ذلك وأقْلَقَـهم، وبلغ منـهم كلَّ مـبلغ، وأجـمع رايهم على الدخـول بينه وبين أبـينا، وكـان أولاد على وعـبـد الله وزرَاء لسَـيْف الدولة ونُدَماءَ، ولا يُفارقونه، فعملوا عليـه من كلِّ وجه بأنفسهم ومع بنيهم، وقالوا لسَيْف الدولة: «إنَّ الأموال التى يغنم اليهودىُّ ويستأثر بها، أنتَ أحَقُّ وأولَى، وقد أخْمَلَك وأخْمل الدولة أجمع! ولو أنك قَتَلْتَه، لم يقلْ لك أبوك فى ذلك شيئًا! وما عسى أن يصنع بابنه؟» أرادوا ـ الفَسَقة ـ قَتْلَ عدوُّهم على يدى ابن الرئيس، ليخـرجوا أيديهم من المسـألة: فإن عاقَبَ، عـاقَبَ ابنَهُ، إن شاءَ، وحـصَّلوا على الدولة دون مـلامة مـن السلطان. فلم يزالوا به أبدًا، ينمُّـون باليهودىِّ، ويكذبون عليه، ويمضـون إلى اليهودىِّ بالكذب على لسانه، حتى تغـيَّر أبونا عليـه وتغيَّـرت له نفسُ اليهـودىِّ، مع قلة تجارب سَـيْف الدولة لمكايد الناس، فـعمل على قـتله، وكان يتـحدَّث بذلك، ويفـشى سرَّه إلى

الوزراء الرافعين إليه، فلا هو يعزم على قتله، ولا هو يتكتّم بالأمر، إلى أن صحَّ ذلك عند اليهوديّ، واعتزم رأيُه على أن يسبقه بالأمر، ورأى عيانًا تغيُّره عليه، وكان أبونا، لما همَّ بقتله، وأعدَّ لذلك عبيدَه، فكَّر في سطوة أبيه، فكفَّ.

وكان لسَيْف الدولة أخٌ صغيرٌ اسْمُه مَاكْسَن، عمُّنا الشهيدُ في وقيعة بَطَلْيَوْس(١) فعمل الخنزير رأيَه مع مَشْيَخَة اليَهُود، وأخبَرَهم بتغيُّر سيف الدولة عليه، فقال له أَحَدُهُمْ وأدْهَاهُم رأيًا: «لا تطمع في الفلاح بعد الشيخ، ولا في سَيْف الدولة! ولكن انظُرْ لنفسك فيمَنْ تُقيمُ إن مات رَئيسُك: أوجَدْتَهُ؟ وتحيَّلْ في سَقْي سيف الدولة، وهذا مَاكْسَن أخوهُ مخمولٌ، فإن قَتَلْت أنت هذا، ووَلَّيتَ هذا، قدَّمْتَ عنده يدًا لا ينساك عليها!».

فسولَّتْ له نفسُه سَقْيَهُ، وكان متمكِّنًا بذلك، لأنَّ أبانا كان كثير الشرب معه والتكرارِ عليه في منزله، فشرب يومًا عنده على عادته، فلم يخرج عنه حتى قذف ما كان في جوفه، واستلقى على الأرض، فلم يَسْتَطِعِ المشي إلى منزله إلا عن مشقَّة، ولبث يومَيْن يجود بنفسه، حتَّى مات ـ رحمه الله عليه.

ولقد سمعتُ كبيرًا من خِصيان باديس يقول: «أرْسَلَ في سَيْفُ الدولة يومًا وقال لي: «انهضْ إلى أُمَّهَاتِي وقُلْ لهنَّ إني اعتزمتُ على قتل اليهوديّ» يقول الخَصيُّ: «فقلتُ له: أنا لا أمضي بهذه الرسالة! فإنَّ الخَبَرَ لا مَحَالَةَ

(١) بطليوس: بالأندلس من إقليم ماردة بينهما أربعون ميلا، وهي حديثة بناها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي بإذن الأمير عبد الله في ذلك، فأخذ له جملة من البناة وقطعة من المال فشرع في بناء الجامع واتخذ مقصورة وبنى مسجدًا بداخل الحصن (الروض المعطار).

عنده! لو أنَّك تريد قَتلَهُ، ما كان نبغى لك أن تُسْمِعَنى ذلك ولا أحَدًا من خلق الله!» فعلمتُ أن حاله تَئُولُ إلى مثل ذلك.

وممّا أعان على الفساد قَبْلَ ذلك أنَّ أبانا كان مع أُمَّهَاتِهِ، اللائى ربَّيْنَ وَلَدَهُ المُعِزَّ أخانا، على ضدٍّ من الأمن، لإفراغِهِنَّ المال على ابنه طفلا صغيرًا ومَنْعِهِ هو منه، فاحتاج إلى اليهودىِّ عن المال، وكان أُمَّهَاتُهُ يُطالِبْنَهُ ويمنَعْنَهُ عن صحبة اليهودىِّ، حتى شعرا بذلك، واتَّفق رأيُهُما على مُطالبة النساء عند الرئيس، وتجريحهنَّ بسرقة المال وإرسالِه إلى البلاد، فلما وقف جدُّنا على المقالة، وقد وقعت المفاسدة بينهُنَّ وبين ابنِهِنَّ، صار مَلُومًا من الأب والنساء، وتحيَّل النساءُ على أن بَرَّأْنَ أنفُسَهنَّ ممَّا قُذِفْنَ به، ودَعَت الضرورةُ سَيْفَ الدولة أن يتصالح مع النساء لرجوع أبيه معهُنَّ، ورُدَّت القصِّة فى رأس اليهودىِّ، فكان ذلك ممَّا زاده غائلةً ونفورًا، وجرى على يديه ما قدَّر الله به لتمام المُدَّة.

وكان فى أوَّل المفاسدة قد احتبس له بكثيرٍ من جباية وادى آش وشكا به سَيْفُ الدولة لأبيه، فتحيَّل الخنزيرُ على أن دعا أبانا إلى منزله لشرابٍ، حتى سكر، وأَمَرَ بخروج بنيه وعياله فى ثياب الحزن، فهالَ ذلك أبانا لِمَا رأى من حالهم وبكائهم، إلى أن قال له: «هل مات عندك أحَدٌ؟» فقال له: «مات عندى مالٌ كبيرٌ لا يمتسك عنك إلا بمطلِ الرعيَّة! وهذا يومٌ طيِّبٌ: فأنِّس أهْلى بكتْب براءَة تبرِّئنى بها إلى أن يَرِدَكَ مالكَ، فإنَّهم قد وجِسَتْ نفوسُهم وفزعوا، فأَتِمَّ إحسانَك بكتْب البراءَة!» فافتَرَصَه فيها، وكتبها، ثمَّ ذهب بها إلى أبيه وقال له: «إنَّما ينفق مالَهُ على الوزراء والشرابِ المُدْمِنِ! وهذا إبراؤه

لى: فأينَ شكواه؟» فرجع مَلُومًا من الأَب زائدًا، وصار فى خسارة مع الوزير والنساء، لِمَا أراد الله من تمام المـدَّة، والله ينفعه بجميل نيَّته وصَـفَاء مَذْهَبه للخاصَّة والعامَّة!.

٢١- ما بلغ ابن نغرالة من المكان الأرفع:

فلما توفِّى أبـونا، وكانت من أكبـر الرزايا للناس، لِمَا كـانوا يرجونه من العـدل على يدَيْه، هاج الناسُ بأمره، وهمُّـوا بقتل اليـهودىِّ، وكـانت تلك مقـدِّماتٌ لهلاكه، غـير أنَّهم كانوا يتـوقَّعون مـعاقبـة الرئيس، وزاد فى طَلَبه لأولاد القَرَوىِّ، وصـوَّر عند المُظَفَّر أن بنيـه زيَّنوا لابنه الإدمان على الخـمر حـتى هلك، وأدركتْ لذلك أولادَ القَروىِّ منـحسـةٌ عظيمـةٌ من نَفْيـهم عن أوطانهم، وأخْـذِ أموالهم، وقَتْل بعض الـوزراء الذين كانوا حَوَالَى أبيـنا لِمَا اتُّهِمُـوا به، وجانِى القضيَّـة لا يُوبَه له، وتَبَرْمَكَ اليهودىُّ بعـد سَيْف الدولة، وسعى فى إقامة مَاكْسَن عمَّنا.

وكَبِرتْ عند ذلك سنُّ جـدِّنا، واخْلَدَ إلى الراحة، وزَهِدَ فى طَلَب البلاد لكبر سنِّه وموت ابنه، وألقى بمـقاليده إلى اليهودىِّ فى الخدمـة عنه، فتمكَّن بما شاءَ من الأمر والنَّهى.

٢٢- استيلاء باديس على مالقة(١):

وإنَّما كان طَلَبُ جدِّنا أكْثَرُهُ وسَعْيُه على أَخْذ مالَقة، فإنَّه، متى كان يأخذ شيـئًا من مَعاقِل الأنْدَلُس، يبلغـه من المُعِزِّ بن باديس أنَّه يقـول: «يخاطِبُنى

(١) مالـقة: بالأندلس، مدينة على شاطئ البحر، عليها سور صخر، والبحر فى قبليها، وهى حسنة عامرة آهلة كثيرة الديار (الروض المعطار).

صاحبُ غرناطة بأَخْذ الكُوَر والقُرَى! أمَا أنَّه لو أَخَذ مثل قُرْطُبة[1] ومالَقة وما أشبههما من القواعد، كُنّا نبايع له فى ذلك!» فجعله كلامُه يجدُّ فى خبرِ مالَقة، وللَّذى كان يرَى من اندبار سلاطينها، وتوقُّعه على أن يأخذ البلدةَ مَنْ يُدْخل عليه الداخِلة منها، فلم يزل يعاوِدُها سِنين بلا سآمة ولا فترة، حتى حصل عليها.

وبنى قَصبَتها بنيانًا لم يقدر على مثله أحَدٌ فى زمانه، وأعَدَّها عُدَّةً للمُهِمَّات، وجعل فيها جميع ما ورث لابنه، وزاد عليه، وكان الذى يتوقَّع من كَلَب سلاطين الأَنْدَلُس واتِّفاقهم عليه لذلك أن يتحصَّن فيها ما استطاع، وإلا، فيجوز منها إلى عِدوة بنى عمِّه بأهْله وذخائره ومُذْ أخَذَها، حلَّ عن نفسه.

ونازَعَهُ عليها ابنُ عبَّاد، وأطاعَهُ أَهْلُها دون القَصَبة، فوجَّه إليها عساكِرَه، وهزمه عليها، ورجعَتْ إليه بعد اليأس منها، ولم يُلاقِ سلطانٌ على مدينةٍ ما لاقى هو على مالَقة من طول الفِتَن ونفقة الأموال، فلما بلغ منها الغاية من آماله، حلَّ على نفسه، وتمتَّع بمُلْكه، ومن ذلك دخلت عليه الدواخِلُ باستنامته إلى الوزراء وولاةِ البلاد، على حسب ما نقُصُّه بعد هذا.

ولولا ما كان غَرَضُنا وَصْفَ دولتنا خاصَّةً، لذَكَرْنا لُمَعًا من دُوَل بنى حَمُّود فى مالَقة، واختلالِ أمرهم واحِدًا بعد واحد، حتى تصيِّر الأَمْرُ إلى جدِّنا ـ رحمه الله ـ لكن نقتصر على ذِكْر ما نحتاج إلى إيراده إن شاء الله.

(١) قرطبة: قاعدة الأندلس وأم مدائنها ومستقر خلافة الأمويين بها، وآثارهم بها ظاهرة، وفضائل قرطبة ومناقب خلفائها أشهر من أن تذكر، وهى فى ذاتها مدن خمس يتلو بعضها بعضًا، وبين المدينة والمدينة سور حاجز، وفى كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات (الروض المعطار).

فتهدَّنت الحال، وتأتَّت السعادات، وامتلأت بيوتُ الأموال سنين لا يُسمع فيها بِفتْنة، ولا يُرَى معها تشغيب، إلى أن اختلَّت الأحوال بعد ذلك بما كان من نفاق اليهوديِّ ـ لعنه الله ـ وتَصْيير وادى آش وجميع أنظارها لابن صُمَادِح، واستِئساد الرؤساء على البلاد، حتى إنه لم يَبْقَ لنا أكثر من غرناطة والمنُكَّب[١] وباغُه وقَبْرة، ولما شاع عند الرعايا خبر موت الرئيس الأجَلِّ ـ فإنَّه كان مُحتجبًا أبدًا ـ خلَت المعَاقِل من الرجال، وافترصَتْها الرعايا بأسبابٍ نَحنُ نَذكُرُها إن شاء الله بعد هذا.

٢٣- علاقات باديس ببنى صمادح أصحاب المرية:

والأوْلى أن نقدِّم وَصْفَ ولايةِ ابن صُمَادِح لألْمَرِيَّة[٢]، وعضد جدِّنا ـ رحمه الله ـ لرياسته، وإثباتَه له فى مُلْكه عند قيام ابن أبى عامرِ عليه، طالبًا له لخلافه عليه، وأيادى كريمة سلفَتْ من المُظَفَّر قبله، لم يسبِقْه إليها أحدٌ من جنسه، ولم تكن مكافأتُه على ذلك إلاَّ أن افترص بلادَه وقَبِل دواخل إلى الإفرَنْج، يَعِدُهم بالمال الكثير، وأجابَهُ مُجاهِدٌ لِمَا أشار به عليه، وعملت الكلمةُ فى نفسه، فلما هَمَّ ابن أبى عامرٍ بالرجوع عن لُرْقة يُريد المَرِيَّةَ، تأخَّرَ عنه مُجاهدٌ، وتبيَّنَ للمَنْصُور قعودُه عنه وخذلانُه إيَّاه، وسألَهُ عن ذلك، فقال مُجاهدٌ مُخاطِبًا له ولأعلام قوَّاده: «يا قوم إن كنتم لا تعرفون البَرْبَر، ولا جرَّبْتُم حُروبَهم، فأنا، والله، عليمٌ بها! فإياكم أن يكون بَوَارُكم على أيديهم، وأنتُم [ستعلمون] أنَّ فِتْنة عشرين سنة خيرٌ من مُلاقاة ساعةٍ واحدةٍ، فإنَّ فيها

(١) المنكب: بالأندلس، مَرسى المنكب صيفىٌّ يكن بشرقيه، وله نهر يريق فى البحر، وعليه حصن كبير لا يرام، به ربض وسوق جامع، وفيه آثار للأول كثيرة (صفة جزيرة الأندلس).

(٢) فى المطبوع: «للمرية».

تتلف الدُّوَل، وينتقل المُلْك، ويستأصل الجمع، فعليكم بالتأنِّى!» فقال له ابن أبى عامرٍ: «جَبُنْتَ! ارجِعْ إلى دانِيَة ولا تفسد علىَّ الجيش!» فأقلع على المقام مغضبًا من قذفه.

وجزع الناس بزوال مُجاهِد عنهم، وأدرك الإفرَنْج الطمعُ، وطلبوا منه ما لا قدرة له به، وانصرف خاسئًا.

وجمع المُظَفَّرُ رجالَه وقال لهم: «كيف تَرَوْن هزيمة هذا العَسْكَر من غير قِتال؟» فأجابوه أن: «قد وُفِّقتَ! وأنتم، مَعْشَرَ الملوك، لم تُعْطُوا الوِلاية على الناس حتى اختاركم الله لها، وجعل عقولكم أجَلَّ وأنْفَسَ من عقول الناس، وبذلك فضَّلتم من دونكم!» ورجع المُظَفَّرُ غالبًا منصوراً، وصار أبو الأحْوَص [ابن صُمَادِح] طاعةً له، لا يروم شيئًا من كلٍّ ما بِألْمَرِيَّة إلا وصار إليه، ولا يأمر فيها بأمْرٍ إلا وكان مِلْكَ يَدَيْه، وبقى الأمرُ على ذلك سنينَ.

وكانت قُرْطُبَة فى ذلك الزمان بمنزلة ألْمَرِيَّة، إذ كان فيها ابنُ السَّقَّاء، لا يمتنع على المُظَفَّر من رغباته فيها شىءٌ، إلى أن توفِّى أبو الأحْوَص، وترك ابنه هذا المتوفَّى بألمريَّة ـ رحمه الله ـ عند ظهور المرابطين عليها، وهو إذ ذاك صغير السنِّ، فأرسل إلى المُظَفَّر يرغب إليه أن يكون له فى العضد والحماية بالمنزلة التى كان عليها لأبيه، وأنه أحسنُ طاعةً وأشدُّ انقيادًا من أبيه، وسألَهُ تجديد العَهْد معه والاجتماع به، فأجابه المُظَفَّر إلى كلِّ ما سأل، ووعَدَه بالذبِّ عنه على أتمِّ ما كان عليه لأبيه، واجتمع به وجدَّد معه عَقْدًا، وثبَتَتْ رياستُه، وقَرَّ حاله قراره، وداما على ذلك دَهْرًا طويلاً، لا يُسمع فيها بِفتْنة، ولا يكابد معها تشغيبٌ.

وكان فى ذلك [الوقت] خدَّامُ دَولَتنا متَّفقين مع اليهودىِّ، إذ كان وزير السلطان وصاحبَ سرِّه: فمنهم صَنيعَةٌ له قد استغْنَى معه، ومنهم عَدُوٌّ له، مُؤَازِرٌ فى الظاهِر استدفاعًا لشرِّه، فاتَّسَقَت الأمور بذلك، وأعان بَعْضُهم بَعَضًا على خدمة السلطان، وأنِسُوا إلى ثِقَته بهم وعَضْدِ(١) بعضِهم لِبَعْض، ولما تهيَّأت له الأمور، وتوطَّدت الدولة، بعد كلٍّ ما ذكرنا من تلك الفِتَن وغيرها، وحصَّل على مدينة مالَقَة بعد المكابدة واليأس منها، حلَّ عن نفسه، ومال إلى الراحات التى يستريح إليها الملوك، وفوَّض أمْرَه إلى الوزير والخَدَمَة.

٢٤- وصول الناية إلى غرناطة حظوته ومنافسته لليهودى:

وفى أمْكَنِ ما كانت الدولة وأبْهَجِها، قصدَه النَّايَة، عبدٌ كان للمُعْتَضِد ابن عبَّاد ـ رحمه الله ـ وكان من جُمْلَة من اتَّفق على غدره مع ابنه المشهور خَبَرُه، فأتى للقَدَر الذى لم يكن عنه محيصٌ، واعتنى به جماعةٌ من كبار العَبيد، وطلبوا له من السلطان العطَايا، فأجابهم إلى ذلك تَقَمُّنًا لسرورهم، كَىْ يزيدوا فى خِدْمته ونصيحته، وقالوا له: «قَصَدَك هذا الإنسان عن مفاسَدَة لغَيْرِك وتعويلِ عليك، وقد أمَّلَكَ، فما تصنع فيه إنَّما تُسديه إلينا» ودخل غرناطة فى أسْعَدِ وقت له، وأشْغَبِهِ على الدولة، وسار فى أوَّل أمره مع الخَدَمَة بأجمل سيرةٍ وتواضُعٍ لهم، حتى حمدوا طريقته، ونفعوه عند السلطان، إلى أن استعمله فى بعض خِدْمَته وصرَّفه فى ولاية بعض عسكره، وكان لطَلَبِه الثأر من بنى عبَّاد، قد اكتفى فِى فِتْنة مالَقة واستمال أقوامًا من الجُنْد، وكان فيها متَصرِّفًا بين يدى مُقاتِل بن يحيى قائدها، ولم يزل مُقاتِلٌ المذكورُ، متى خرجَت مُغيرة إلى بَلَد ابن عبَّاد، يُعلم المُظَفَّرَ بكفاية النابة

---

(١) عَضَدَهُ عَضْدًا: أعانه ونَصَرَهُ.

المذكور فيها، حتى كاد يجعل له الحسَّ كلَّه، إلى أن ورده كتابُ السلطان مشتركًا بينهما، وصار قائدًا معه فى البلدة، وزاد جِدُّه، ونَما خَبَرُه، وتَضَاعَفَ إحسانُ المُظَفَّر إليه، وكان، متى ما أتى مالَقة، نزل السلطان فى داره، وشرب معه، مع تنويهه به والتزيُّد له من ذلك مع الأيَّام.

وكان، مع تقريب السلطان له مَتَى انفَرَد به أو افتَرَصَه على الخَمر، يجرِّحُ عنده اليهودىَّ، ويقول له: «قد أكَلَ مالَكَ، وتملَّك بأعظم من مالك، وبَنَى خيْرًا من قَصْرِك! فالله الله فى إزاحته والتحبُّب إلى المسلمين بفَقْدِه!» والمُظَفَّرُ فى هذا كلِّه يَعِدُه ويقول له: «لا بُدَّ لى من ذلك، وأُوَكِّلُكَ على قتْلِه!» فَربَّما لفظ بذلك بمَسمَع من لا يُؤْبَه له من عبيده والمُتَصَرِّفين بين يديه، فينقلون ذلك على المقام إلى اليهودىِّ ليَصِلَهُم عليها، فلا تزداد نفسُ الخِنْزِير إلاَّ حماقَةً ومُنافَرَةً، ويكاد أن يموت همّا وحنقًا، مع حسده له على المنزلة التى خُصَّ بها دونَه، ورام مطالبته عند السلطان بكلِّ مرام، فلم يقبل منه، فلما رأى أنَّ منزلته لا تزداد إلا ترفيعًا، وخاف على نفسه أن يحمل السلطان على هلكته، انقطع رجاؤه من كلِّ وَجْهٍ وقال: «إنَّما اسْتِهْزَاؤُنا بالناس من أجْل عزِّ السلطان! وأَمِنَّاهم على أنفُسنا بحمايته وعنايته، وأمَّا الآنَ، فقد انقطع الرجاءُ: لا سلطان نأمَنُهُ وقرين سُوْءٍ يطلُبنا عنده، وعامَّةٌ تريد هلاكَنا، ونَحْنُ قَليلٌ مُستَضْعَفُون فى الأرض!».

٢٥- إجلاء الأمير ماكسن بن باديس:

وكان [اليهودىُّ] قد ألقى يَدَه فى عمِّنا ماكسن، رجاءً منه أن يسند إليه، فكان من أشدِّ الناس عليه، ولم يكن حَوَالَيْه رجلٌ رشيدٌ يُسَدِّده ويأمُره

بالمُداراة، إلى أن قال له مواجَهَةً: «أتُرِيدُ أن تقتلنى كما قَتَلْتَ أخى؟» فعملَتْ فى نفس اليهودى، وكان ماكْسَن مع هذا كُلِّه سيِّئَ الطريقة، قليلَ البِرِّ، خَشِنَ الكلام، يَعِدُ الناس بالشـرِّ، حتى كرِهَهُ أهْلُ دولة أبيـه وأبغضوه، وكَثُـرَ عليه الطَّلَبُ عند أبيه.

وكانت أُمُّـهُ تَتْرُكُ مـعاملة الوزير الذى ألقى يَدَه فـيه، وتمِيـلُ إلى خَاله: يهودىٌّ يُعْرَف بأبى الربيع بن المَاطُونى، وكان قابض الوجيبة، فتخاطِبُهُ أبدًا، وتَطْلُبُ منه مالاً باسْمِ السلف، فغـارَ الوزيرُ لذلك، وعمل على طَلَبه وطَلَبِ أُمِّه وحاشِيـتِهِ، وافترى عليهم عند السلطان، وشهـد له على ذلك جماعةٌ من أهلِ الدولة، ممَّن نقمـوا على ماكْسَن قَبْلَ ذلك ما قـدَّمْنا ذِكْرَه، وأغْرِىَ بهم حتى جعلَتْه الأنفة من مكروه مـا نُقِلَ إليه أن يأمر بقَتْل أمِّه ودَاياتِهِ وبَعْضِ من انتمَى، وقتل الوزيـرُ خَالَهُ غدرًا فى منزله على الشراب لخـلافه عليه فى هذا وغَيْـرِهِ، واتَّقى منه نصيحـة السلطان، وأعطاه على ذلك مالاً جـسيمًـا، لئلاً يثرب عليـه قَتْله، فـقبل السلطانُ ذلك منه، ووَدَّ أن لو قَتَـلَ كلَّ يومٍ يهوديًا، فيُغْرِمَ عليه مالاً.

ثمَّ أمر بعـد ذلك بنَفْيِ ولَدِه، وكان من آكَدِ الأسـباب فى نَفْيـه أن خرج السلطان يومًا لعَرْض الأجناد، وقتَ الفِتْنة مع ابن صُـمادِح، فانتدب إليه من شيوخهم من قال له: «ما ينبغى لك أن تُقَدِمَ علينا العَبِيد وغَيْرَهم، وتَتْرُكَ مثل هذا الابن! أرْسِلْهُ معنا، وتتبَّعه فى كلِّ مُلِمَّـةٍ!» يعنى ماكْسَن، فعزَّ ذلك على أبيه، مع سَخَطه عليه لمـا كان يرَى منه ونُقِلَ إليه عنه، وخاف أن يكون وراءَ هذا الكلام فعلٌ بأن يخملوه ويقدِّموا ابنَه، وجزع اليهودىُّ لذلك جزعًا شديدًا

وقال: «مـا حسبتُ نفـسى فى ذلك اليوم إلا مقـتولاً!» فأعْلَـمَ السلطانَ بهذه الوجوه، وامر على المقـام بنَفْيِه عن البلَدِ، ووجَّه معه من عبـيده من يُخْرِجه عن نَظَره كلِّه، ووصَّى اليـهودىَّ ـ لعـنه الله ـ ذلك العبـد أن يَصِلَ معـه إلى موضع سمَّاهُ بحيثُ يخفى أمْرُهُ، فيضرب فيه عنقَه.

وكان أخونا الـمُعِزُّ قد ربَّاه جَدُّه، ونال مـعه الكرائم، واحبُّـوهُ فى حُرْمة ابيه، واتَّفق رأىُ الجمـيع مع اليهودىِّ على قَتْل ماكْسَن وتوليـةِ المُعِزِّ، حذراً على انفسهم من ماكْسَن ان يثور عليهم ويعـاقِبَهم بمَحَبَّتهم فى [ابـن] أخيـه وتَرْبِيتهم له، فكان من ذلك ما أمَّلُوهُ.

وخرج عَـمُّنا على أسوأ حال، مـذعوراً، خائفًا، بَعْـضُـهم يُشيـر بقَتْله، وبَعْضُهم يـأبَى إلا إزاحته عن النَّظَر كلِّه، حتَّى صـار ببعض الطريق، وانحلَّ عن غُمومه بهلاك اليهودىِّ، على ما نذكُرُه بعد هذا.

الفصل الرابع

إمارة باديس بن حبوس

٢- من موت ابن نغرالة إلى نهايتها

٣٦- مؤامرة الوزير اليهودى ابن نغرالة

ثورة صنهاجة عليه وقتله:

وإنَّ الخنزيرَ - لعنه الله - لما رأى طغيانَ النساءِ، وكلُّ فرقة منهنَّ تُريد ولاية مَنْ تُربِّيهِ من أبناءِ السلطان، ورأى تغيُّر مولاه عليه وإمعانَ الغاية فى مُطالَبتِه والازديادِ فى جاهِهِ، لم يَجِدْ فى الأرض مَهْرَبًا، ولا وجد إلى التخلُّص سبيلا، وشاورَ فى ذلك مَشْيَختَه من ذوى الرَّأى، فقال بعضهم: «انجُ بنفسك، وقَدِّمْ جُلَّ مالكَ إلى أىِّ البلاد أحبَبْتَ، تَستَوطنها غَنيًا آمنًا!» فقال: «ذلك مُمكِنٌ لولا أنَّ الرئيسَ الأجَلَّ، إن أرسل فىَّ إلى صاحب تلك الجهة، يقول: «ذهب وزيرى بأموالى: إمّا أن تصرفه علىَّ، وإمّا أن أُفاتِنَك!» أَتَرَى أنه يبيع الرئيس عنِّى؟ هذا ما لا يجوز إلاَّ أن أُصيِّرَ إليه من البلاد بحيث تقع الفتنة بينهما، ونأمن على نفسى عند الذى نصير إليه ولا يُمكنه إسْلامى، وأنا قد وضعتُ فى يده بلادًا ومجدًا كبيرًا!» فاتَّفق رأيهم على مُخاطبة ابن صُمادِح، وأنَّه الأولَى لجيرته وقربه من كلِّ أمرٍ يحتاج إليه فيه.

وأخبرنى رسولُ ابن صُمادِح ابنُ أَرْقَم، وكان قد تخيَّروه للرسالة حينئذ، قال: حضرتُ يومًا مع المظفَّر - رحمه الله - وقد خرج إلى بعض متنزَّهاته والنايةُ معه، واليهودىُّ وراءه، حتى بصر الناية بحكيم كان للوزير، يهودىٍّ، فأمر بإهانته وإرجاله عن دابته بحضرة الرئيس، وتوقَّح فى ذلك، وأبلغ فى شتم اليهودىِّ، فاستعظم اليهودىُّ ذلك وقال لابن أرقَم: «حسبك هذه

الإهانة، ولا صبر عليها! فإن كُنتم تستطيعون لى على شيء، وإلاّ فلا بدَّ من الترامِى على غَيركم!» فقال له ابن أرْقَم: «أنت جديرٌ بالتثبُّت فى هذا الأمر! وأى ضرورة دفعَتْك إلينا وبيدِكَ الرعايا، وإليك تُجبى الأموال؟ والسلطانُ لم يغيِّر عليك شيئًا أكثر من همزات هذا المُطالِب! فاحتَلْ بأن تُصابِرَ الأُمور إلى أن يموت الشيخُ، لا سيَّما أنه قد أسَنَّ، وتُلقى يَدَك، فى حفيده المُعزِّ، وتبقى حالُك معه حسب ما كانت مع جدِّه، وهو أقْرَبُ إلى السلامة!» فقال له اليهوديُّ: «كنتُ أفعلُ ذلك لولا أنَّ المُعِزَّ صغيرُ السنِّ، وله أمَّهات وطبقات جَمّة من النساء والحاشية، فكيف نرجو معهم الفلاح؟ والحال إذ ذاك تكون علىَّ أشدَّ لاختلاف أهوائهم، وقد صحَّ عندى أن الصبىَّ يحقد علىَّ ما قاله الناس من سَقْيِ أبيه، وقد أدَرْتُ هذه الوجوه، فلم يتَّجِهْ لى منها أمْثلُ من الترامِى على المُعْتَصِم!» فقال ابن أرقَم: «دخلتُ على المُظفَّر، وألقيتُ إليه من الكلام رُموزًا، وقلتُ له: «أيَّدَكَ اللهُ! تَيَقَّظْ! فإنك لم تَطْعَن فى السنِّ، ولا بلغتَ فيه مبلغًا يولد عليك الغفلة عن دَوْلَتك» وجاءَ منِّى أن يستَفْهِمَنى عن الكلام وأقُصَّ عليه بَعْضَه، فدعا اليهودىَّ وقال له: «انهضْ إلى ابن أرْقم وقلْ له: لأىِّ وجهٍ قال لى الآن: تَيَقَّظْ!، واستَفْهِمْهُ عن ذلك!» فجاءَنى اليهودىُّ وأخبرنى بالقضيَّة، فدهشتُ لها ومِتُّ، ولم أجدْ جوابًا، فاتَّهمنى الخِنْزِيرُ، وخاطب بأمرى المعتصم وأشار عليه أن يُقعِدنى عن الرسالة ويوجِّه فيها من يثقُه، فسفر فيها رَضِيعَه وأمَرَه بنسج الأمر معه، وكيف الحيلةُ فى تصيُّر الدولة إليه، وغرناطة معدن الجيش، وفيها من صِنهاجة من لا يجوز هذا الأمر عليهم؟ وقال له: «لا تُدْخِل نفسك

والمُعْتَصِمَ فيما لا يتمُّ وتَفتضِحُ فيه مع المظفَّر، وهو صاحب الأموال والقدرة على الفتنة! وتخزى معه، وتكون سببًا إلى هلاك نفسك والفساد عليه!» فرأى الخنزير من رأيه أن يُخْرِجَ من البلاد كلَّ من يتوقَّع قيامَه.

وتخيَّر من كبار صِنْهاجة وغيرِهم من العبيد، الذين يخشى معرَّتهم، أقوامًا، وأشار على السلطان بإرسالهم إلى المعاقِل المُهِمَّة، وصكَّك لهم بها، وقال لهم فى سرِّ الأمْر: «أنتم إِخوتى، وقد أَخْمِلتُم معى، ورأيتمونى! وارى من دولة هذا السلطان ما ينبغى لكم إنكارُه بأن يقدِّم عليكم من ليس منكم ولا شأنه شأنكم، وتبقى ولايتُه عارًا عليكم وشنارًا ما بقى الدَّهرُ، وقد نصحت السلطان فى أمره، فلم يقبل منِّى، ولا يُقدر على مُضادَّته، والآن أتوقَّعُ على هذه البلاد الشريفة والمَعاقِل الفارهة أن يليها من قِبَل النابة مَن يشقى به الجميعُ، ولا نقدر معهم على إمساك الدولة، وتكون لهم الصولة علينا، ثم لا مَهْرَبَ إلا إِلى يديه، فإذا أمْسكْنا معاقِلَنا وكان بنو عمكم بالحضرة، يتجسَّر على تَبْديديكم، وكان أمره بعد ذلك هيِّنًا، متى أراد التغيير، قتلناهُ، ومتى ما سخط السلطانُ على أحدِنا وأمر بنَفْيِهِ على يديه، لَجأَ إلى مَعْقِلِ صاحِبِه».

فقبل القومُ قَولَه، مع شَرَهِهِم إلى ولاية البلاد، وبادروا إلى ذلك، فأخرج يحيى بن يِفْران إلى مدينة المُنكَّب، ومُسكَّنَ بن حَبُوس المغْرَاِلىَّ إلى جيَّان، ومَن سِواهُم إلى غيرها من القواعد، وزيَّن للسلطان أن ذلك من وجه النَّظَر له، وأنَّه لا يحمى القواعد إلاَّ كِبار الرجال، وأن المعزولين قد صَحَّ عنده غفلَتُهم وتضْيِيعُهُم، إذ كان لا يسمع من أحد إلا قوله فى هذه المشَابِه، لِثِقَتِه به.

وكتب [اليهوديُّ] إلى ابن صُمَادِح يُخبره بخروج القَوْم الغَوْغاء من المدينة، وأنّه لم يَبْقَ فيها إلا من لا يُوبَه له، ويحصدهم سَيْفُه إذا دَخلَها، وأنّه مُتَهيِّئٌ لفَتْح أبوابها متى جسر وطرقها، وضيَّع النَّظَرَ فى سائر الحصون غير القواعد، وأهمَل ما يَرْتَقِبُونَ به من الرجال والعُدَد على وجه الغفلة، حتى خلَتْ.

والمُظفَّر، فى هذا كلِّه، لا خَبَرَ عنده إلا الإقبال على الشرب والدَّعة، فلما خَلَت المَعاقِل، وصحَّ عند أهلها، بإهمالهم واحتجابِ السلطان عنهم، أنَّه قد مات لا مَحالةَ، وتصايَحَت بعضُها لبَعْض، وَخلَّتْ بأقطارها، وافْتَرَصَها رجالُ ابن صُمادِح، وصاروا فيها حتى لم يَبْقَ منها إلا حِصْن قَبْرَيْرة، على مقربة من غرناطة فى طريق وادى آش.

وأرسل اليهوديُّ على المقام لابن صُمَادِح، يلحُّ عليه فى الإقبال إلى المدينة، وأن لا مانِعَ يمنعه، فالتوى عن ذلك ابن صُمادِح، وجزع من الجسر على مثل غَرْناطة، إلى أن اتَّسع الخَرْقُ وتَمادَى النفاق، وصار اليهوديُّ مُتَنَقِّلاً من داره إلى القَصَبَة حِذْرًا من العامَّة، حتى يتمَّ ما أَمَّل، فأنكر ذلك الناسُ، مع بُنْيانِه لحِصْنِ الحَمْراء على أنه، إذا دخل ابن صُمَادح البَلَد، صار هو بأهْلِه إليها، إلى أن تتوطَّد الحالُ، فأنفت العامَّة والخاصَّة لمكر اليهود وما اشتهروا به من تغيير الأحوال، ورأوا من الرُّتَب خِلافَ ما عهدوه.

وللَّذى أراده الله من هلاكهم فى يوم السبت لعشر خلَوْن من صفَر [من سنة ٤٥٩] استعمل اليهوديُّ الشراب تلك الليلة مع أقوامٍ من عَبيد المُظَفَّر، كانوا قد عاقَدُوه واتَّفقوا معه، وبعضُهم فى السرِّ يشنأُهُ، فأعْلَمهم بأمر ابن

صُمَادِح، وأنه واردٌ عليهم ومسوِّغٌ لهم من القُرَى فُلانة وفُلانة من فَحْص غرناطة، فانتدب إليه أَحَدُهم ممَّن كان يكمن بُغْضَه، وقال له: «قد عَلِمنا هذا! فأَخْبِرْنا عن تسويغك هذه الإِنْزَالات، أَهُوَ مولانا حيٌّ أو ميِّتٌ؟» فردَّ عليه بعضُ حاشية اليهوديّ، ووبَّخه على قوله، فأنف ذلك العبدُ وخرج فارّاً على وجهه [وهو] سكران، يصيح بالناس ويقول: «يا معشر من سمع المُظَفَّر قد غدره اليهوديُّ! وهذا ابنُ صُمادِح داخِلٌ في البلدة!» فتسامع لذلك الناس أجمع خاصَّتُهم وعامَّتُهم، وأتوا عازمين على قتل اليهوديّ، فتحيَّل على المُظَفَّر حتى أخرجه إليهم، وقال: «هذا سلطانكم حيٌّ!» ورام الرئيس تسكينَهم، فلم يقدر، واتسع الخَرْقُ على الراقِع، وهرب اليهوديُّ بنفسه إلى داخِل القصر، واتَّبَعَتْهُ العامَّة حتى ظفروا به وقتلوه، وأحالوا السيف على كلّ يهوديّ بالبلدة، وحصلوا على عظائم من أموالهم.

واستأسدت إذ ذاك صِنْهاجة، وطَغَوْا بما صنعوه على الرئيس، مع الفِتْنَة المُصْطَكَّة عليه من كلِّ قطر، وكانوا هُم الوزراءَ ومُدَبِّرى الدولة، والمُظَفَّرُ من هذا كلِّه تحت خوفٍ وذلٍّ، قد حقد عليهم ما صنعوه بوزيره، من غير أن يَعْلَم بشىء من دواخِلِه، ولا صدق قَوْلهم عليه، وسائرُ أمرِه معهم بالمداراة والصبر، إلى أن تفتَّحت له البلاد، ورجعت طاعته إليه بما نَحْنُ نذكرُهُ بعد هذا إن شاءَ الله.

ولما مضى مُسكَّن إلى جيَّان، على ما قدَّمنا ذِكْرَه، أَلْقَى فى طريقه عَمَّنا ماكْسَن، يحمله الصِّقِلّىُّ، فاستَنْقَذَهُ، ومشى به إلى جَيَّان، وقال: «لا فائدةَ أكبر من هذا: ابن الرئيس يكون معى حُجَّةً على ما أُريدُه من مُلْكِ جيّان أو

غيرها؟ وسينقاد إليه الناسُ، ونحصل على عظائم!» كالذى كان، فولَّى جيّان باسْمِهِ، وصار حاكِمَها مع بنى عمِّه، وحصَّل إذ ذاك من أموال اليهودى فيها على ما لا يتحصَّل، وبقى ثائرًا على أفضلِ حال.

٢٧- الحركة الموفقة التى قام بها باديس لانتزاع وادى آش من أيدى ابن صمادح:

وإنَّ المُظَفَّر، لما رأى ما نزل به من كَلَبِ العدوِّ وطَمَعِ الناس فيه، وما حلَّ به من كلِّ وَجْهٍ، جمع الناس وقال لهم: «ما تَرَوْن فى أمرِ وادى آش، وتصيُّرِها إلى ابن صُمادِحٍ، واستحواذِه على أنظارِنا؟» فأجابه قوَّاده وجملةُ رجاله أن: لا دواءَ لهذا، إلا أن تبذل الأموال، وتترك الدَّعة، وتُباشِر الأمر بنفسك!» فقال لهم: «مَثَلى ومَثَلُ ابن صُمادِح كمَثَلِ القُبَّعة التى كان بإزائها عشٌّ إوزّة، فأعجبها بيضُها، فقالت: «لأحضننَّ هذا البيض، يكون خيرًا من متاعى!» فلما رامت ذلك، عجزَتْ وقصُرَتْ جَنَاحاها عن التحضين، فلما رجعت إلى متاعها، وَجَدَتْها قد فسَدَتْ، وكذلك ابن صُمادِح: تعدَّى على بلدى، وسيخرج عنه وعن كثير مما كان قديمًا بيده» فقَوِيَتْ نفوسُ الناس، وادَّرع الحزمُ والعزمُ، وتأهَّبَ للمسير، واجتمعت إليه الأجناد [وفرَّق] فيهم العطايا، ونازَلَ وادى آش حتى حاصرَها.

وكان فى أوَّل الفتنة، للذى رأى من قيام رعيَّته وخشى خلاف الجميع، قد وجَّه لابن ذى النُّون، صاحبِ طُلَيْطُلَة، يعلمه بما دهمه من الأمر، ويسألُه صِلَةَ يده به، وأنّه ما انصرف إليه من البلاد أعطاهُ منها ما أَحَبَّ واختار، فسارَعَ ابن ذى النون إلى ذلك، ولحق به، وهو على وادى آش قد حاصرَها

وقَرُبَ مَرامُها، واجتمع معه إلى أجْمَلِ هيئة وأتمٍّ رتبة، وفى قَصَبة وادى آش ذلك الوقْتَ وزراء صاحبِ ألْمَرِيَّة وأكابِرُ رجاله، فاشتدَّ عليها الحربُ، وكَثُر الإنفاقُ، حتى إنه انتهت النفقة عليه، على ما رأيته مكتوبًا بخطٍّ يد جدِّى ـ رحمه الله ـ ستَّةَ بيوت من المال دَرَاهِمَ ثُلُثِيَّةً، البيتُ منها ألفُ ألفِ دينار ثُلُثِيَّة.

وصار ذلك مَثَلاً فى الناس لصبره وكثرة إنفاقه.

فلما رأى مَنْ بالقَصَبة من أكابر أهل ألْمَرِيَّة ما دهمهم، وأنّه لا مَلْجأ لهم إلا الهرب أو السَّيْف، ولم يجدوا إلى ذلك سبيلاً، تحيَّلوا وأرسلوا إلى ابن ذى النون، وهُمْ على الهلكة، يعلمونه بما هم فيه وقَطْعِ رجائهم عن إمداد صاحبهم، ويسألونه أن يتوسَّط أمرهم مع المُظَفَّر، ويأخذ لهم العَفْوَ، ويخرجُون على سلامة، ووعدوه على ذلك، إن هو استنقذهم، أن يُصيِّروا ألْمَرِيَّة مُلْكه، وكان ابن ذى النون من الطمع فى غايةٍ لم يَنْتَهِ إليها مَلِكٌ، فطَمِع فى قولهم ذلك، وترامَى على جدِّنا، ورغب إليه، فأسْعَفَهُ، حتى خرجوا وأخْلَوْا له القَصَبة، وثَقَّفَها بحماة رجاله.

واستنجز ابن ذى النون وَعْدَه، وقال: «إنَّ الذى أُريد من هذه البلاد بَسْطَة(١)» فلم يكن بُدٌّ للمظفَّر من إنجاز وَعْده، وأمر بإخلائها له، وتفتحت للحاجب بلادٌ كثيرةٌ أَربت على التى انصرفت إليه.

وأرسل إليه ابن صُمادِح بعد ذلك، يسأله العَفْوَ والإغضاءَ على ما كان منه، وأنّه لا يتعرّض من ذلك شىءٌ لولا اليهودىُّ، وخوفًا، إن أهمل البلد،

(١) بسطة: مدينة بالأندلس بالقرب من وادى آش، عامرة آهلة حصينة ذات أسوار، وبها تجارات وفعلة بضروب الصناعات (الروض المعطار).

أن يتعدّى عليه من يخشى داخلَته، وترامَى على جدِّنا وأتاه بنفسه ليجتمع معه على ذلك، ويجدِّد عقدًا، ففعل وقبل اعتذاره، ويُحْكَى أنَّه، عند اجتماعه به، كان أوَّلُ ما خاطبَه به: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (يوسف: ٩٧) فأجابه المُظَفَّر على البديه: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (يوسف: ٩٢).

٢٨- الحركة الموفقة التي قام بها باديس

لانتزاع مالقة من يد ابن عباد:

ولما صار إلى المظفَّر جميعُ بلاده، وتوطَّدت له الدولة، وكانِ قبل أَخْذِه لوادى آش قد أَخَذَ مالَقة، وقدَّمها قَبْلَ شغْله كلِّه، وكان قائدُ عسكره إليها تلك السفرةَ يحيى بن يِفْران، وكان الرجلُ من أكابر تَلْكَاتَة وكان مُطاعًا فى قومه، قد شقى جدُّنا به طول مُدَّة الفتنة، ولمّا استأسَدَ صِنْهاجة، على ما قدَّمنا ذكره بعد قتل اليهودى، تَرَأَّسَ فيهم يحيى المذكور، ونال من الرئيس كثيرًا من ماله وعرضه، فحقد ذلك عليه، وكان عازمًا على أنه، إذا انصرف من فتح مالقة، أن ينظر فى خلعه، ويثور عليه مع بنى عمِّه، وكان الخَبَر قد طرأ إلى جدِّنا، فقضى الله تعالى أن مات يحيى المذكور فى تلك السفرة مقتولاً فى الوقيعة، فقال عند ذلك المُظَفَّر: «أَتَتْنا فى يوم واحد فرحتان: أَوَّلُهما موتُ يحيى، والأُخرى فَتْحُ مالَقة!» ثمَّ نهض على المقام إلى وادى آش، ففعل عليها ما وَصَفْناهُ.

وكان ابن عَبَّاد قد دخل مدينة مالَقة المذكورة قبل هذا الفتح، وامتنعت له القَصَبَة لِمَا كان فيها من كفاة المَغَارِبة، وقائدُها ذلك الوَقْت مَخْلُوفُ بن مَلُّول، شيخٌ كبيرٌ من ثِقَاته، وانتظروا قوَّةَ الرئيس صبرًا منهم، وكثرةَ بُقْيَا،

وأَنَفَةً من كشفٍ لحرمة الذين كانوا بالقَصَبَة المذكورة، إلى أن ورد العسكرُ، وخرج إلى مُلاقاتهم من فيها من عسكر ابن عَبَّاد، فمُنِحوا عليهم الظفر، ودخلوا عَنْوةً.

وكان حصول ابن عَبَّاد عليها لداخلةِ أهلها ومَيْلِهم إليه، اختياراً له علينا، على إحسان المُظَفَّر - رحمه الله - إليهم، وأنَّه وجدهم على أَسْوأ حالةٍ، فأصلح من أحوالهم كثيراً، وحمل فُقَهاءَها ومُقْرِئيَها على المَطايا، وأنزلهم على أفضل المَراتب، ما كان مشهوراً عنه في الأقطار، إذ كانوا قَبْلُ في حال قلَّةٍ وعلى غير رتبة، ثمَّ كافأوه بما فعلوا، وبعد ظفره بهم، عفا عن ذلك كلِّه، وزاد في مَراتبهم، ولقد اختُطِبَ لابن عَبَّاد مُدَّةَ كونه فيها، وحُكِيَ أنَّه قيل في الخطبة: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣) فلم تعطِ السياسة مُعاقَبَةَ أحَدٍ منهم، إذ كانوا فيه سواء، ولا يصحُّ إمساكُ بلدةٍ إلا بأهلها.

فقرَّ مُلْكُ جدِّنا قَرارَهُ، وجبر الأموال، وزادت الجِبَايات.

٢٩- الكشف عن أمر فنيانة[1] وفتنتها:

ولما انصرف من فِنْيَانَة، غزوتَه تلك الوادي آشِيَّة، دعا بقائدَيْه [النَّاية وعبد الله بن القَرَوِيّ] وكانا على العسكر مُدَّة فِتْنة وادي آش، وامتحن على أموالهم أين أُنفِقَتْ: أكانت في واجِبٍ أَمْ زِيفَتْ، لِمَا استعظم من النفقة، وجمع القائدَيْن والكَتَبة، وكشف على ذلك غاية الكشف، وكان النَّاية من أهلِ التجربة والفكرة في العاقبة، قد عمل هذا الحساب، وأخرج منه نَفْسَه:

(١) قرية بقرب وادي آش من الأندلس جامعة خطيرة كثيرة الكروم، وكان بها طرز للديباج، والمياه تطرد في جميع جنباتها (الروض المعطار).

فمَتى وردَتْ أموالٌ من غرناطة للعَطَاء، يتحـرَّى عنها، ولا يقبض منها شيئًا، ويقول للذى يأتى بهـا: «احمِلْها إلى خِبـاء الشيخ عبد الله بن القَـرَوِىِّ، فهو أَعْلَمُ بما يصنع، وهو أسَنُّ وأَدْرَبُ!» فـاحتجَّ النايَةُ بهذا الفـعل عند المُظَفَّر، وأتى على ذلك بالبُـرْهان، وتبـرَّأ منهـا، وغـضب الحاجِبُ عـلى عبـد الله ساعتَئذٍ، وأمر بنَفْيه.

وكان أكـثرُ الجند يشنـأُ النايةَ على ما وَصَـفْناه، ويؤثر عبـد الله لتَرْبِيَـته معهم، فشق ذلك عليهم، وأدْرَكَهم من الأَنَفة أن خرجوا كلُّهم حُرْمَةً فى عبد الله، وأخْلَوْا عليـه المَحَلَّة، وزال عنهم أكـابِرُ صِنْهاجـة أجمع، فلم يصـبح الحاجب بِفْنيَـانة منهم معه أَحَـدٌ، ورَجَوْا أن يكون يرغب إليهم، ويفـزعونه بتلك الفعلة، فأتى إليـه النايةُ يرعد فَرَقًا، وأخبره بالقِصَّـة، فقال المُظَفَّر فى نفسه: «لا خَيْرَ لى فى ودِّ[١] هؤلاء! فإنَّ ذلك مما يزيدهم طغيانًا، وتجرُّهُم العادةُ، متى أحبُّوا الخلاف، على أن يمتثلوا هذه الطريقة، ولا حاجة بى إلى إمـساكـهم، وفى مُضِـيِّهم الـغنيمـة والراحة!» فـسكت عنهم وتركـهم على أهوائهم، فصـاروا فِرَقًا وأشْتـاتًا، منهم من مضى إلى جَيَّـان يريد مُسكَنًا ابْنَ عَمِّـهم، ومنهم من انقطع إلى شَرْق الأندلس، ومنهم مـن رجع إلى غرناطة على خفاء يُرَى أنه لم يكن فى الجملة.

وأَقْلَـعَ المُظَـفَّر عـن فِنْـيانة وأتـى غرنـاطـة، لـم ينقـصـه من ذلك شىءٌ، ولا عـدم جُنْدًا، واستـوزر النايةَ، وبقى على الدَّعـة والتـمكين دَهْرًا طويلاً.

---

(١) فى المطبوع: «فى ردِّ».

٣٠-استيلاء باديس على مدينة جيان:

ولمّا تمكَّن ماكْسَن من جيَّان، وثار معه مُسكَّنٌ مع بنى عمِّه، أَقْلَقَ ذلك جدًّنا، وخاف النايةُ على نفسه منهم، وجزع من أن يَتَّفِقَ مَنْ هنالك من بنى عمِّهم وسائر البَرْبَر الذين بغرناطة، ويقتلوه، ويسعوا فى ولاية ماكْسَن، ولم يَرَ المُظَفَّر ـ رحمه الله ـ لمُفاتَنَته وَجْهًا، وإنَّ مُسايَرته ومُداراته أَوْلَى، وإنَّ فى فِتْنَته من العار وسوء القالة أن يُقالَ: «رجع المُظَفَّرُ يُكابِدُ فتنةَ ابنه، وإن أعياهُ أَمْرٌ عجزا» فتَرَكَه على حاله، ورأى أنَّ السعْىَ عليه بالمُداخَلة أَوْلَى، والناية، فى ذلك كلِّه، يجدُّ ويَجْتَهِدُ، خوفًا على نفسه، ويَبْذُل الأموال للمَغَاربة، ويرسل منهم إلى قَصَبَة جيَّان مُتَخَيِّسين مَنْ يُداخِلُهم.

وكان مُسكَّنٌ قد أخملَ عَمَّنا ماكْسَن، واستبدَّ بالرأى، وجمع الأموال دونَه، وصار له ماكْسَ بمنزلة البازى الذى يُصَيَّد به، وماكْسَن لا يقدر على أكثر من الصبر، إذ لا فِئَة غيرهم، وقنع بتلك الحال لاستنقاذه له من الموت، ورأى إقرارَ روحِه فى جسده غنيمةٌ، فَضْلاً عن طَلَب ما سِوى ذلك، فلم يَزَلْ أبدًا يُداخل عليه بالأموال، حتى استمال جميع مَغَارِبة القَصَبة، وكان، مُدَّةَ كونه بجيَّان، يُخاطِبه أقوامُ من صنهاجة فى مَحَبَّته، ويقولون بذلك فى المحافل والمجالس سرًا وجهرًا، ويرَوْن ولايته خيرًا من تولية العبيد عليهم واليهود ومن أشْبَهَهم، قد سئموا من ذلك، وأشربوا المُظفر من الشنآن والبغضاء ما لو استطاعوا لَخَلَعُوه، لكنَّ السعادة والمُدّة لم يقطع عليها قاطِعٌ! والرئيس من هذا كلّه تحت أَمْرٍ عظيم، والناية متوقّعٌ للقتل مساءَ

وصباحًا، وتكثُر عليه الأراجيف مع الساعات، إلى أن نجعت تلك المُداخلة: فقام المَغَارِبةُ بالقَصَبة على ماكْسَن، وخرج منها فارًا بنفسه، هو وجميع من معه، وهرب مُسكَّن، لا يلوى على شيء، يطلبون النجاة بحشاشة أنفسهم، ووقع فيهم البهتُ، إذ لم يدروا من حيث أتوا لمّا سمعوا النداءَ بالليل: «لا طاعةَ إلا للمُظَفَّر!» وعجَّل الحاجبُ بثقاف جَيَّان واستراح من تلك الفئة.

ولقد حُكِىَ عن المُظَفَّر - رحمه الله - أنه لما تهيَّأَتْ له هذه السعادة، رأى النايةَ مهمومًا، فسأله فى ذلك، فقال: «اهتمَمْتُ لخلاص هذه الشرذِمة بأرواحهم، ولسنا نأمن شرَّهم فى البلاد! «ومِنْ ثَوْرٍ حَىٍّ لا يُلْبَس هَرَاكِيس!» واسْمُ وَلَدِك كبيرٌ!» فأجابه المُظَفَّرُ أن قال: «الذى حلَّ بهم أشدُّ من القتل، لخلائهم عن أوطانهم وكَشْفهم فى انتقالهم بأهاليهم إلى من يتولَّى خِدْمَتَهم ويُرْكِبُهم ويُنْزِلُهم، والموتُ دونَ هذا راحةٌ!».

فقصد ماكْسَن إلى طُلَيْطُلة، وصار بها عند ابن ذى النُّون مُكْرَمًا، على حال الجُنْديَّة، وتقلَّب مُسكَّنٌ فى البلاد، يخدم الجُنْدية، وصاروا أبادِيدَ.

٣١- استيلاء النايةعلى بياسة(١).

وزاد جاهُ الناية بغرناطة، وأخْمَلَ صِنْهاجةَ، وأظهر لهم البغض لنفاقهم كان بزَعْمَه على اليهودىِّ وعلى الحاجب فى ابنه، واستخصَّ بنى برْزال وأحْسَنَ إليهم، وقرَّبهم من نفسه، وهُمْ كانوا أوْلِياءَهُ وأنْصاره، وبثَّ فيهم العطايا، وأخلد السلطانُ إلى الراحات.

---

(١) بياسة: بالأندلس، بينها وبين جيان عشرون ميلا، وكل واحدة منهما تظهر من الأخرى، وبياسة على كدية من تراب مطلة على النهر الكبير المنحدر إلى قرطبة، وهى مدينة ذات أسوار وأسواق ومتاجر وحولها زراعات، ومستغلات الزعفران بها كبيرة (الروض المعطار).

ثمَّ إنه، لما فُـوِّضَ له الأمْر، رأى أن يجعل لنفســه ذِكْرًا وثناءً يؤثَر عنه، فى غزو البلاد ومُداخلة بعضها، فانتدب إلى مدينة بَيَّاسة، وقال للمُظفَّر: «إنَّ مُداخلةَ بعض أهْلِهـا عندى!» وكانت إذ ذاك لولَد مُجَاهِد فـقال له الحاجِب: «لا تتعـرَّض إليهـا، ونَحْن فى دَعَةٍ! وكـأنِّى والله أرَى تُنفق عليهـا الأموال، وتُهْلك الرجال، ولا نُـحَصِّل على فائدة!» فـألحَّ عليه وزيَّن له الأمـر، حتى أجابه إلى ما سأل، وأمَرَهُ بالمَسِير، وهَـيَّأ معه الجيش، وأعطاه الأموال، فَرَامَ من بيَّاسة أمرًا عظيمًا: كلٌّ ذلك يتعذَّر من أمْرِها ما لا يُرجَى به أخْذُها، حتى سئم السلطان النفقة ومنع منه المال.

وكان فى الـمَجْلِس مـمَّن يُطالبه بذلك رجلٌ كـاتبٌ للمُظَفَّر يُعـرف بابن أَضْحَى، ويقول للحاجب: «لم تقِمْ بيَّاسة وعشـرةٌ أمثالُها ببعض هذه النفقات التى كُنْتَ عنها فى غِنًى!» وكلٌّ ذلك يتَّـصِل بالنابة، فيُخْرِج المـغايرَ، ويغنم الأغنامَ، ويوجِّهُ بهـا إلى مولاه ليَجبُـرَ منها بعض نفقـاته، فكان ابن أَضْحَى يبيعهـا ببخْسٍ من الثمن، ويُحضر المال بين يديه، ويـقول له: «أين هذا مِمَّا أنْفقت؟» فيخرج أخلاق المُظَفَّر عليه، فيـصبر عليها النابة، واستسلف طعامًا كثيرًا من شيوخ جيَّـان، وكان بانيًا على أنَّه، إن لم يقدر فيها على شىء، أن يكون ذلك طريقَهُ فـارًا، لا ينصرف إلى غـرناطة، إلى أن استفـتحهـا بكثرة المؤَاظبة والمُلازمة، وكانت عليه الصولةُ على مُطالـبيه بذلك، ودخل المدينة فى عِزَّةٍ ورفـعةٍ وإكرامٍ من السلطان جـسيمٍ، مُهَـدِّدًا لمَنْ طالَبَهُ، ومُسْـتَطيلاً بذلك مُعْلِنًا.

وقدم إلى المُظَفَّر يقول له: «لا أدخُل البَلَد حتَّى تأمُر بَنَفى ابن أَضْحَى أو

انْصَرِف من مكانى هذا!» فرأى الحاجبُ أنَّ نَفْىَ ابن أَضْحَى أوْلى من فساد عسكره، فأمر بنَفْيه، بعد تَغريمه وإهانَتِه، وخرج من ذلك الوقت ساعيًا على الدولة ومُطالبًا لها إلى زمان ولايتنا، حتى أظفرنا الله به، على ما يأتى ذِكْرهُ بعد هذا.

٣٢- مؤامرة ضد النابة ومقتله:

وإنَّ وزراءَ الدولة وكثرةَ عبيدها، لمَّا بصروا بما فعل النابة، والزيادة فى أمْره وجاهِه وأنَّه هو الحاكِمُ دون السلطان، حتى قالوا: إنَّه طامِعٌ بالرياسة ولا قيام مع بنى برزَال، وشنع ذلك عليه، أدركَتْهُم منه أَنَفَةٌ عظيمةٌ وحسدٌ شنيعٌ، فاتفق رأيهم أجمع، أعنى ولاةَ البلاد: منهم وَلَدُ القَاضِى، صاحِبُ بَاغُه وابنُ يَعِيش، صاحِبُ قَبْرة[1]، وواصِلٌ، صاحبُ وادى آش، والقاضى ابنُ الحَسَن النُّبَاهىّ بمالَقة أنَّه متى قدِم إحدى هذه الجهات، قُتِلَ فيها، وأرْسِلَ فى ماكْسَن ـ وقُدِّم ـ أراد والِدُه أم لم يُرِدْ.

ثمَّ إنَّ النفر المذكور عملوا رأيهم، وفكَّرُوا فى العاقبة، ورأوا أن يقتله واصِلٌ العِلجُ بوادى آش [فيكون ذلك] أستر لقتله وأبعد للظنِّ بهم: فإن عاقبَ، عاقَبَ غُلامَه وتبرَّأوا من ذلك، فوُعِد واصِلٌ المذكور على ذلك بالوزارة مكانَهُ، وضمنوا له توْطيدَهم للأمر عند السلطان، حتى تهيأ ذلك فى دماغ العِلْج، واستعدَّ لقتله، إلى أن حدث بوادى آش أمْرٌ لم يكن بُدٌّ للسلطان أن يرسل وزيره فيه، من تحصيل أموال والكشف على أحوال، فنهض فى أنحس وقتٍ وأشَرِّ قدَر، وكان واصِلٌ هذا المذكور من أكبر صنائع النابة،

(١) قبرة: مدينة بالأندلس، بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلا، ذات مياه سائحة من عيون شتى، وبها سوق جامعة (الروض المعطار).

وممَّن اطَّباه بإحسانه، وشرَّفه عند السلطان، ورفعه من الحضيض، ففشا الأمرُ عند الناس قبل ذلك أنَّ واصِلاً عازمٌ على قتل النابة.

وحكى لى إنسانٌ من البَرْبَر، قال: «نصحتُه بذلك وحذَّرتهُ أن لا ينهض إليه، وأنَّ مِثله لا ينزل فى داره، فكان من جوابه: «تريدون أن تنزعوا الرِّيبَ من أنفسكم وتردُّوها على أصدق الناس إلىَّ!» فلمَّا توجَّه إلى وادى آش، ونزل فى منزل واصِل، أشهر له إكرامًا وتَبَجُّلاً لم يكن عليه قَبْل، حتى اطمأنَّ، وانصرف عنه أعوانُه، ولمّا دخل الليل فى جنّه، أتاه واصِلٌ برمحه، وهو سكران، فضربه ضربةً أنفذه بها، حتى أثَّرَت الضربة فى الحائط، وقطع راسه وطَوَّفه صبيحة الليلة [بأزقَّة مدينة[1] وادى آش ومُنادٍ ينادى] «هذا جزاءُ من طلب ما لا يعنيه!».

فورد الخبرُ فجأة بغرناطة، وبُهِتَ له الناس، ولم يَدْرِ أحدٌ من حيث أُتِىَ، فمنهم من يقول: «السلطان دسَّ إليه، إذ لا يمكن لذلك العِلج أن يتعدَّى!» وبلغ ذلك من السلطان مبلغًا عظيمًا، وَعلِمَ أن هذا من اتِّفاق عليه، ودخل منه فى بحر طامس، حتى أسهر ليله وامتنع من لذَّته، وأشهر للناس تجلُّدًا، وهدَّده الجند، وأرسل إلى واصِل بالأمان، يأمُرُه بالقدوم عليه، ويشكره فيما فعل، سياسةً منه وتوطيدًا إلى أن يستبرئ كيفيَّة الحال، وينظر لها على مهل، فزاد بذلك العِلجُ حماقةً، وقال مُعلِنًا: «لم أُدْخِل يدى فى هذه القضيَّة وحدى، حتى يساعدنى عليها من لا يُنال بهم عن أحدِ!» وأتى مُشترطًا للوزارة، وكلَّمَ وَلَدُ القاضى المظفَّر فى أمره وقال له: «إنَّ هذا العبد، وإن جنى عليك فى قتل وزيرك، فإنَّما فعل حبًا منه فيك ورغبة فى قُرْبك،

---

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «مدية».

وهو أحقُّ من ذاك إذ هو تربيتُك!» وجعل [أهل] الدولة يعتنون به ويسألون العفو له، فأحسَّ السلطانُ ذلك في نفسه، وأيقنَ أنَّ هذه النَّصْبة لم تكن إلاَّ عن اتِّفاقٍ عليه، وحسب نفسه مخلوعًا لا محالة، فإنَّه، ساعةَ ما قُتِلَ الناية، أُرْسِلَ عن ماكْسَن إلى طُلَيْطُلة، ووُجِّه إليه بخاتم النايه كَي يتحقَّق قتلَه، وقيل له: «ليس بغرناطة عليك مختلفٌ ولا من يصُدُّك!» إلاَّ أنه لم يتجاسر حتى يَرَى إلى ما تئُول الأحوالُ، فكظم الحاجب هذا في نفسه، واحترق له قلبه، ودارَى جميعَهم، وصوَّب فعلَ واصِلٍ، وقال: «هذه نارٌ موقدةٌ ليس ينقذني منها إلا إطفاؤُها والنظر لها على سَعةٍ!» وأمَرَ بتقديم واصِلٍ على الخَيْل.

٢٣- استدعاء الأمير باديس ولده ماكسن ورجوعه إلى الحضرة:

واتَّفق رأيُ الجميع، مع بعض أهل قصْره من النساء، أن يُدخَلَ عليه ابنُهُ، ويُخلَع من أجْله على كلِّ حال، فلما رأى المُظَفَّر اتِّفاقهم عليه، وأحسَّ بهذه المصايب، ولم يَرَ لنفسه مع من يستريح، أرسل في أبي الربيع النصرانيِّ، وكان فيما مضى كاتبَ حَشَمٍ، قد عرف خدمة اليهوديِّ وتصرَّف معه، فأرسل عنه سرًّا، وأتَتْ كُتُبُه قبل ذلك، فراجَعَ عنها بخطِّ يده، فكان ذلك زيادةً في الشرِّ وخبال الدولة، فلمَّا أحسَّ بهذا ولَدُ القاضي صاحبُ باغُه، شافَهَ المظفَّرَ في الأمر وقال له: «إن كنتَ تعزم على أبي الربيع، فنحنُ لا نبقى معك، ولا يلتوى أحدٌ حواليك!» فأجابه: «ألاَ أبقى الله منكم أحَدًا!» وضيَّع الحزم في هذا، لا سيَّما أنه قد علِم أن بيده مدينة لا يملك منها معه شيئًا، فعَمِلَت في نفس صاحب باغُه وأهل الدولة، وتغيَّرت الأنفس، وكثر الإرجاف، واتَّفق مع صاحب قَبْرَة، وكان صديقه قديمًا، إلى أن ورد أبو الربيع.

فاستراح إليه المظفَّر على المـقام، وأعلمه بما حلَّ به، وأتاه المذكورُ من دَانية، إذ كان بها من وقت قتل اليهودى، فقال له أبو الربيع: «قد أيقنتُ أنهم أرسلوا عن ابنك، ولا مـخـتلف عليـه، ولا قـدرة بك على مُكابرة العـامَّـة والخـاصَّة! فـالرأى فى ذلك والحـيلة أن تتلافـى الأمر، وتوجِّـه فى ابنك، وتكْتُبَ إليـه بخطٍّ يدك بالعفـو عنه وإيثـارك له على كلِّ والٍ لم يَصلُح لك، وأنك مقـدِّمُهُ لولايتك وموِرثُهُ مُلكَك، فـإنك، إن فعلتَ، هَدَّنْتَ قلوبَ هذا العالم وتَقَمَّنْتَ مسرَّتهم، فإذا وصل ولدُك بين يديك، كنتَ فى أمره بالخيار، وتخدَّمتَ قصَّته على سعـة: فُمكابَدَتُه، وهو معك، خيرٌ من مُكابَدَة شرِّه مع بُعد! ولستَ تأمَن مكرهُ حيث ما توَجَّهَ!».

فرضى المُظَفَّـرُ ذلك من قوله، وأرسل على المقام عنه فـقيهًا كـبيرًا من فُقَـهائه يؤمِّنه ويوطِّده، ويبـشِّره بمَذْهَب أبيـه واستخـلافه له، وأنه ليس فى الدولة من بنيه من يُـرْجى لهذا الأمر سواه، وكـتب إلى ابن ذى النون يرغب فى تسريحه إليـه، فسُرَّ بذلك جمـيع الناس، وانصرفت نفوسُهم عـمًّا كانت عليه، وطفَّف العالَم فى مـحبَّة ماكْسَن، ورجَوْا الخـيرَ معه، إلى أن وردَ فى أنحَسِ طالع وأنكَدِ جِدٍّ.

فأَنَّـسَهُ أبوه، وبذل له الأمـوال، وجعل يوصِّـيه بوَصـايا لم تنفـعه، أراد بذلك ضُرَّه وانصراف نـفوس الناس عنه، فأوَّلُ ما أمره به بالـشدَّة والفظاعة، ويغَّض إليه صِنْهـاجةَ، وقال له: «أنت تعلم مـا شقيتُ أنا بهم بعد حَـبُوس! فَصُلْ عليـهم ليهـابوك، وليس فى الدَّولة غيـرك إلاَّ بنى أخيك: فـهم أطفال صغـار!» وكان ماكْسَن من السـفه وعَجْز الرأى وقلَّـة الفطنة بحيث لم يَخفَ

على أحد، فزاد على ذلك أضعافًا مضاعفةً، ووافق سوءُ طبعه مَقالةَ أبيه، فتحكَّم الشرُّ فيه، ولم يقدِّم شيئًا على شتم الناس والاستهزاء بهم، ومن العجب أنه كان أبغض العالم فيمن أحبَّه وسعى فيه، فجعل يبلغ من أعراضهم وتكليفهم ما لا يطيقون وما انصرفت نفوسُ العالم فيه إلى البغضة، وتبيَّن لهم من قلَّة عقله، واجمعَ الكلُّ على الا خَيرَ فيه يُرتَجى.

وكانت بنت عمِّه أمُّ العُلُوِّ طامعةً بزواجه، وكانت مُطاعةً فى قومْها، قد استمالت أكثر نساء الجُند، فأوَّلُ ما ابتدأ بتهجينها وَشَتْمِها، وأنَّها فيما يزعم لا تصلح له، فزاد ذلك فى نحسه والسعْى بكلِّ وجْهٍ عليه، وكانت كريمةُ المُظَفَّر الساعية فى خبره يعد سعيها فى قتل أُمِّه، قد أغارت من أن يكون ماكْسَن يزوج بنت عمِّه، حِذْراً منها أن تجعل منها حاشيَةً وتمنع حرمَتَه، واتَّقى من ذلك واصِلٌ وامرأتُه، فقالا لها: «أيُّ فائدة لك فى زواج أُمِّ الْعُلُوِّ؟ لكنَّ الأَوْلى بكِ أن تعطيه صَبيَّةً من تربيتك، تكونين من أجلها حاكمةً على داره!» ففعلَتْ ذلك وأخرجَتْها إليه بأموال، وصوَّرت عند السلطان أنها تُوفِّيت، لئلاَّ يطلبها فى قصره، باسْمِ أُخرى ماتَتْ عندها.

وشقَّ على بنت عمِّه ذلك كلُّه، ورجَعت تسعى عليه مع نساء البربر وتدخل بين امرأة واصل المذكور، وبين كريمة الحاجب، وتقول لها: «إذا أرَدتِ الانفراد بماكْسَن، فما حمل امرأة العِلْج على السكنى معه؟» فمُنِعت الدخول إلى داره، فأنفت لذلك، وكان مع ذلك زوجُها واَصِلٌ يؤثر عليها صبيَّةً كانت لها، ويؤذيها من أجلْها، فاجتمع على المرأة الغيرةُ والأنفةُ لِمَا طُرِدت عن دار ماكسَن، فلم تلبث أن مضت إلى أبى الربيع النصرانى: وقالت

له: «أنا أَمَةُ المُظَفَّر فَلْيَنْظُر من نفسه! فإنَّ الاتِّفاق عليه على وجه كذا وكذا!» وبيَّنتْ جميع ما راموا من غدره، فأتى أبو الربيع إلى الحاجب مسروراً، وقال له: «انْظُرْ كيف تبتدى سعادتُك فى تشتيت هؤلاء القوم! أخْبرتنى امرأةُ واصِل بكذا وكذا! ألمْ أقُلْ لَك[١]...؟».

(١) فى هامش المطبوع: «إلى هنا انتهى ما هو موجود فى نسخة «مذكرات عبد الله» الوحيدة من تاريخ دولة باديس بن حبوس جد المؤلف».